من سلسلة آثار المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش

الإسلام دين الفطرة

أثر القرآن في تحرير الفكر البشري

أثار الخمر في نظر أرقى الأمم

يصدرها : ناصر جاويش

(١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م)

مطبعة القاهرة - بابمباية



حضرة صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بك

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الجيل الذى عاصر أبي ، والبقية الصالحة التى نستمد منها العون والهدى فى طريق الحياة .

إلى الجيل الذى نشأ بعد أبي ، ولم يتح له أن يعرف شيئاً ، أو عرف القليل عن جهاده فى سبيل الوطن والعروبة .

أقدم بعض آثار والدى فى ميدان الإصلاح الدينى والعلمى ، الذى حمل لواءه ، فى عهد كان عبء الدعوة فيه إلى الإصلاح فادحا ، لا ينهض به إلا المجاهدون ، من أولى العزم والقوة ، الذين يستسهلون كل صعب فى سبيل أداء رسالتهم، لا يثنيهم عنها ما يعترض طريقهم من أهوال، وبخاصة فى تلك الحقبة التى قام فيها بالدعوة إلى الإصلاح .

وهى رسائل ثلاث تحمل أسماء مختلفة، ولكنها تهدف جميعا إلى غرض واحد ، هو الكشف عما فى الإسلام من سمو ورفعة ، وما فى أحكامه من علم وحكمة ، وما فى روحه من بر بالإنسانية وهداية لأبنائها .

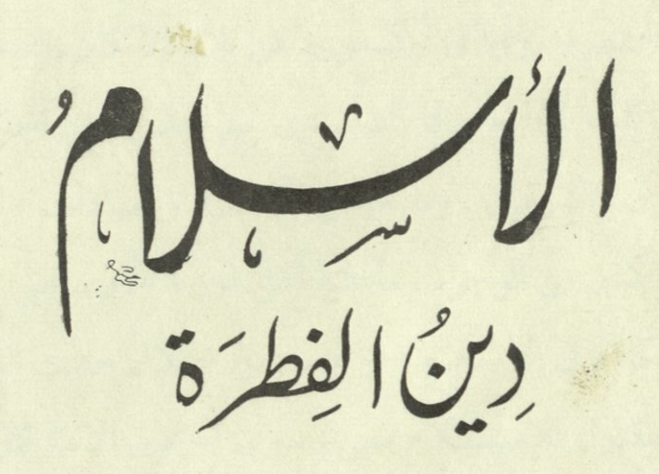
ولعل من توفيق الله، أن تهيأ لى الفرصة لنشر هذه الرسائل، فى هذه الفترة التى تطورت فيها الروح المصرية، واتجه فيها تفكير المثقفين إلى المباحث الدينية على أسلوب علمى، كان يلتزمه — رحمه الله — فى كل مباحثه ودراساته.

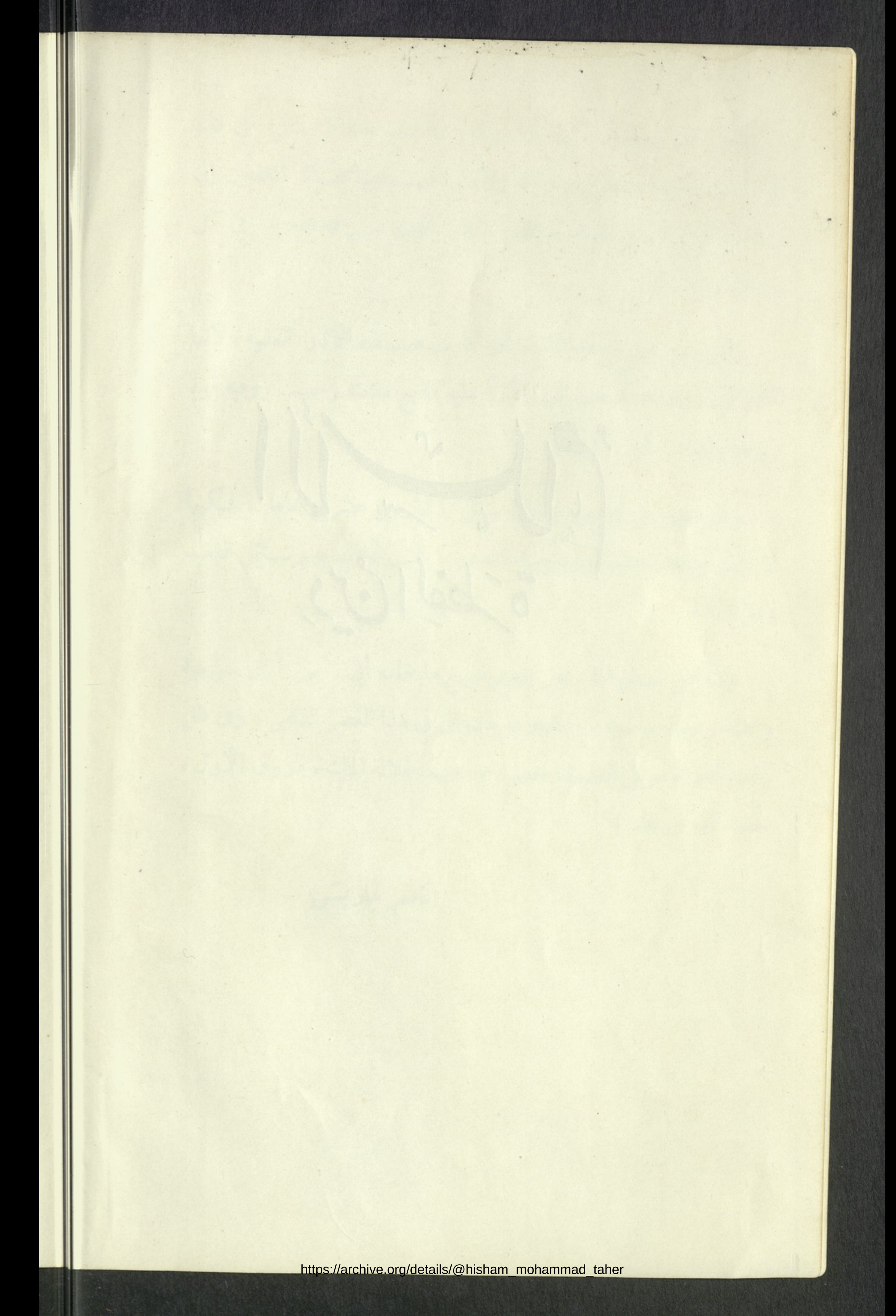
وليس من حقى فى هذا المقام أن أطرى هذه الآثار العلمية، لأنها آثار أبى، وهأنذا أقدمها للقراء أثراً عليه طابع منشئه وحسب، وفيه قوة روحه وإيمانه وكفى.

وقد مضى على إنشاء هذه الرسائل أكثر من عشرين عاما، لكنها لا تزال تحتفظ بجدتها وأسلوبها التقدمى. الذى تميزت به رسائل الفقيد ومؤلفاته.

وسأعمل بعون الله، على تتبع جميع ما خلفه أبى، من آثار سياسية وعلمية ودينية وأدبية، واظهارها بالتوالى فى هذا العصر الذهبى، وفى ظل راعى العلم وموئل العلماء حضرة صاحب الجلالة الملك «فاروق الأول» حفظه الله ورعاه ؟

ناصر جاويش


الإسلام
دين الفطرة



بسم الله الرحمن الرحيم

زارنى ذات يوم ، وأنا فى أكسفورد من بلاد الانكليز ، لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال ، التى تباين فى كثير من الوجوه ، ما عليه أهل أوربا الآن ، حتى أفضى بنا المقام الى الكلام فى الإسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى ، سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم ، وما زادونى فيهم بصيرة ، فطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفنى على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف .

فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل ، أصول الدين الإسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم ، من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص ، التى مثلت لهم الإسلام فى أبشع صورة وأقبحها ، ولم يكد ينتهى بنا الحديث ، حتى انطلق أحدهم قائلا : « يخيل لى أيها الشيخ أن هذا

الدين لا ينافى الفطرة فى شىء » (Natural religion) ، فأجبته إذ ذاك ، وقد تذكرت قوله عليه السلام - « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » . نعم وكذلك سماه النبى عليه السلام ، وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف ، ثم عنّ لى بعد ذلك أن أضع عجالة فى بيان معنى كون الإسلام دين الفطرة وتوجيه ذلك ، ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل ، وجدتها أحسن فرصة أتشرف فيها بعرض ما عنّ لى بين أيدى أعضائه الأماثل ، لعلى أسعد بقبولهم لما جلبته من بضاعتى المزجاة ، فأقول والله المستعان :

١ - الحديث

روى البخارى عن أبى هريرة انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه ، كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها) ، وقد اختلف المفسرون كعادتهم فى المراد من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قدداً .

والذى يفهم من تعقيب ذلك فى الحديث بقوله عليه السلام فأبواه : يهوّدانه أو ينصّرانه .. الخ ، أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها .

واعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الإسلامى من عدم تكليف القاصرين وألا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشدين

راضين بدين آبائهم فيؤاخذون اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الإسلام قد اعتبر القاصرين ، ولو أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس ، مسلمين ناجين حتى يكلفوا . فالدين الفطرى لكل مولود هو الإسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالإرث ونحوه فإن الاطفال فى ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فإنا نريد أن نذكر لك وجه كون الإسلام دين الفطرة ، وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهوّد ولا منصّر لما اختار بفطرته الا الإسلام ، فانه لايمكن توضيح ذلك إلا بالبحث فى بعض أصول لإاسلام وقواعده والأغراض التى يرمى إليها الشارع فى تكاليفه ، فنقول :

٢ – الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم ودبره ، لا يمكن أن يشابه الممكنات فى شىء من صفاتها ، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز لا يستطاع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول

إلى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال : « البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج . وأرض ذات فجاج ، كيف لاتدلان على اللطيف الخبير » . فجاء الإسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد فى الاستدلاء شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار

الله تعالى، فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان إنه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم، فذهبوا كانعلم مذاهب شتى، حتى لا تكاد تجد تشابهاً بين آلهتهم . فسنحقق لك بعد أن هذا مباين لمقتضى الفطرة، إذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات وإلى إنكار ماليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة

فمن ذلك ما قصه الله فى شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات »

ومن البديهىّ أن الشىء لا يصح إنكاره إلا إذا ثبت بالبرهان القطعى عدم وجوده، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والإحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهاناً ينفى به وجود الشىء، وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم فى هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق

جاء الإسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة، أفلا تدبرت قوله تعالى: «الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا

بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم»

لقد جمعتنى المصادفات برجل مسلم من الانجليز، لم يرج من إسلامه شيئاً من حطام الدنيا، ولا أن ينال جاهاً يتخذه عدّة لنيل شىء من الرغائب السياسية، فقال لى: إن فى القرآن الكريم آية لا أملّ من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها، جاءت فى وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الأديان الأخرى، على ذكائهم وسعة اطلاعهم، أن يأتوا به. ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسى. فبأبيك أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك إلا وأنت لاه عنها تلعب أو حركت بها لسانك إلا وأنت بها تعجل

هذا وتتميما لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكلمات عثرت عليها (*) للورد ما كولى الكاتب الإنكليزى الشهير، إذ قال ماترجمته:

«أن علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الأشياء مالا يمكن للعقل أن يحيط به، بخلاف السواد الأعظم من العامة فان معظم أفكارهم وقضاياهم إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل فى كل زمن، فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها.

---

* see the essay on milton

ولطالما أذَّن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً فى دينهم من البدع ، مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إلٰه محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال . ويمكن القول بأن معظم الأسباب التى ذكرها « جيبون » وجعلها أساس إنتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين فى أطراف الأرض إلا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة ، فإن إلٰهاً لم يخلق وكائناً لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به إلا الفلاسفة العالمون ، أما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فإنهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة إدراكهم عن أن تصل إلى القول بإلٰه ليس له صورة محدودة فى نفوسهم، فكانوا يتأففون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة راميهم بالبله أو قصور الذهن

طاشت النفوس فى الأزمنة القديمة ، وضلت الصراط السوى ، وقست القلوب ، وانتهكت الحرمات ، فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلّم الناس ويدعوهم إلى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم فى إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الإلٰه لهم فى صورة آدمىّ مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال، كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب، فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ، ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان، فكان القديس

جورج لديهم إلـه الحرب، كما كان المريخ عند اليونان، وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا Cicilia وغيرهما آلهة الجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى (the Muses) آلهات لدى اليونان ... وهلم جرا

ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية، ولكنهم لم يفلحوا

تجد العامة إلى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات، أكثر مما يميلون إلى تعرف وتفهم شىء من قواعد الدين الأساسية » انتهى ببعض تصرف

هذا ما قاله اللورد ما كولى فى شأن الدين الذى يعتنقه ويذعن له، وفى الأمم التى شاركته فى الأخذ به وبيان أحوالهم، فتذكرت هنا، والحديث شجون، ما أصاب عقول المسلمين من المس الذى أصاب عامة غيرهم . أفرأيت الذين يذهبون إلى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون إلى من فيها متوسلين بهم إلى من هو أقرب اليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على إصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم؟ « قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . أإلـه مع الله. أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . والخلاصة أن السبيل التى جاء بها الشرع الإسلامى فى الإيمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى يصل إليها الإنسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع إلى غير تلك السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد۝الله الصمد۝لم يلد۝ ولم يولد۝ ولم يكن له كفواً أحد)

٣ – النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها

ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية ، دينها الوثنية ، ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد، ووسائل ارتزاقها السلب والنهب، فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا ، فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه

كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشىء من المعجزات الخارقة للعادة، فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم إلى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل ، إذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الأرض ونحوه من المعجزات ؛ ولقد نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية لاتدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة إذجاءت منفردة لأنها ليست من أفعال الصفة التى سمى بها النبى نبيا أو الرسول رسولا ، ولذا كان النبى عليه السلام يرجع بالقوم إلى ماهو من حدوده والى تدبر ما جاء به القرآن الكريم من الهداية، فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الأبراء على الطب لمن يدعيه ، قال تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه، قل انما الآيات عند الله، وانما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» ولطالما تنصل النبى صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب ، وأرشدهم الى ماقصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائداً

فيهم من الضلال المبين ، قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى الىّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » وجاء فى سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا »

كم حذّر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبيّن لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها ، فمن ذلك قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفاً) وقال : (قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ماتستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين، قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين »

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئا عن تروّ من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرارمنهم على أن لا يقبلوا شيئاً إلا ببرهان، ولكنهم كانوا يقترحونها إما عبثاً أو عناداً أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الأولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخــذ الضلال بتلابيبها ، فكان النبى عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية وبطلب ما لا يخالف سنة الله التى لن تجد لها تبديلا، قال تعالى: « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت

لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »

أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه ، إذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى أن ٢ + ٢ = ٥ وبرهن على ذلك بابرائه مريضاً من داء عضال ، فان المدعى بها أتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات مالا يستطيع أن يحمل أحداً على اعتقاد دعواه التى أتى بها ، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم يؤوّلون ما يأتى به أنبياؤهم من المعجزات ، فقائل أنها سحر وقائل أنها من أعمال الجن المسخرة لهم ، حتى اذا ضاقت عليهم الاسباب لجأوا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار، كما قال تعالى: (وقالوا قلوبنا غلف) وقال تعالى: (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فكانوا يقفون بعد أن تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فعل أسلافهم، وناله من عنادهم ولجاجهم فى طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ، ولو كانت الخوارق فى يد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم وافحامه ،

لما قعد بالنبي عليه السلام أمر عن الإتيان بها، ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسنته التي لا تتغير «وإن كان كبر عليك اعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين»

والخلاصة أننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وأن لا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة إلى مايريدون من الغايات. ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التي جاء بها ذلك النبي الأمي عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونوراً مبيناً يهدى به الله من اتبع رضوان سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم إلى نزول إحدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم. فمن ذلك قوله تعالى: «وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون»

نزل القرآن الكريم ليؤدي ماقصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الإلٰهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة، ومازال القرآن إماما يتبع وفيصلا يحكم في النوازل، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه، فاستعملوا آيات القرآن في غير ما وضعت له، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد، بل تراهم تطرفوا واجترؤا على القرآن

ومنزله، فأوّلوا القرآن طبقا لأهوائهم وأخرجوا كثيراً من آياته عن معانيها التى تقضيها لغته وأسلوبه وسياقه، أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى: « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله: « شفاء لما فى الصدور » وقوله: « لهم ما يشاؤون عند ربهم » وقوله: « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما » وقوله: « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» وقوله: «ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً» إلى نحو ذلك من الآيات؟ وإن شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات وأمثالها من الأفك المبين والجهل الفاضح فارجع إلى ما كتبوا. ولنضرب لك مثلا شيئاً مما كتبوه فنقول:

(١) جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودىّ وقيل بعداً للقوم الظالمين » حديث موضوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج انه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى أسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت ... اه

(٢) وجاء فى كثير من التفاسير فى تأويل قوله تعالى: « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ـ فى سورة الرعد ـ إن

الضمير فى «له» عائد الى من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد، وذلك ان ملائكة الليل اذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار، فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل، ورووا فى ذلك حديثاً عن كنانة العدوى قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال: اخبرنى عن العبد كم معه من ملك. قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذى على الشمال . . . . . وملكان من بين يديك ومن خلفك . يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، وملك قابض على ناصيتك ، فاذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام، وملك على فيك لايدع الحية تدخل اليه ، وملكان على عينك ، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى وابليس بالنهار وولده بالليل ... اه

ولا يخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبى ، على أنه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به ، مع أن سياق الآية لايكاد يحتمله بوجه من الوجوه، فان سياق الآية كان فى التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات ، وعلى عظمته وتعاليه المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يتقى الانسان دونه أى حافظ، إذ قال : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا وجلاوزة

سواء عنـد الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان ما يقضى به الله على عباده. ثم بينت الآية أن سنة الله فى خلقه ربط الأسباب بمسبباتها، نخفاء الاسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها، فإن الله الذى جعل ذلك الرباط رباط السببية مطلع على خفايا الأمور محيط بما تجنه الضمائر ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم؛ فإذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال، فلا ينفع الانسان إذ ذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائما يقيه شر الحوادث، هذا ما يفهم من الآية وسياقها، فعجبا لأولئك المفسرين أرادوا أن يؤوّلوها ذلك التأويل الشاذ ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا إن الضمير فى قوله تعالى «له معقبات» يعود على من ذكر اسم الله تعالى ، وهذا لا أثر له أصلا فى الآية ، هذا فضلا عما عملوه فى تفكيك نظام الآية إذ قطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الأجزاء التى تتألف منها

(٣) ومن ذلك ما قاله بعضهم فى تأويل قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها » بسورة القدر ـ حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الأرض السابعة وله الف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل وجه الف فم ... إلى آخر السلسلة المعروفة ، فانظر إلى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) ومن ذلك أيضاً ما أتى به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » إختلف أهل التأويل

فى ذلك . فقال بعضهم : يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران، وزاد بعضهم الحياة والموت . ثم انقسموا، فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر ، وقال بعضهم انه فى ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الأولى الذى لم يره أحد غيره يمحو مايشاء ويثبت مايشاء، وقال أيضاً: ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الساعة الأولى منهن ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، واذا شئت أن تستقصى ما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم .

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والإثبات هنا ، فنقول : قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها :

قال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) . انقسم أهل الكتاب على النبي عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الأحكام، كما كان من الأحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئاً من الآيات الخارقة للعادة كإغاضة المياه

ونقل الجبال واحياء الموتى لايجيبهـم الى شيء من مطالبهـم واقتراحاتهم كما قدمنا ، فكانوا يستضعفونه ويتزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزاً لاينبغي له أن يدعى النبوة ، فردّ الله على أولئك القوم ، وبين لهم أن تلك الأشـياء لاتنافى الرسالة فى شيء فقال: « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك كآدم وابراهيم وموسى وداود وجعلنا لهم أزواجا وذرية » كما بين أن التصرف فى الـكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا لله تعالى فقال وما كان لرسول أن يأتى بآية الا بإذن الله الذى هو خالق كل شيء ، فهو الذى يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء اثباته، طبقاً لما سبق فى علمه القديم، كما يدل عليه قوله تعالى: « وعنده أم الـكتاب » . اذ معنى أم الـكتاب أصله، وأصله هو العلم القديم الذى لا تتعلق قدرة ولا ارادة بشيء الا طبقاً له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى: « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الـكتاب » إلا مجرد تأكيد مااستفيد من قوله قبل ذلك: « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا بإذن الله» .

هذا هو معنى الآية الـكريمة فاضرب بغـيره عرض الحائط ولا تبال ، ولأحذرك مما يعتقـده بعض الناس مستدلين بهـذه الآية من أن الله تعالى قد يغير ما سبق فى علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلا ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته فى ليـلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه: « اللهم ان كنت كتبتنى عندك فى أم الـكتاب شقياً أو محروماً أو مطروداً أو مقتراً علىّ فى الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى الخ » فإن معنى ذلك أن الداعى يسأل الله أن يغير ما سبق علمـه أزلا الى ما هو

من مشتهيات نفس الداعى ، وإن انقلب علم الله بذلك جهلا .

عاش النبى صلى الله عليه وسلم ما عاش، ثم مضى السلف الصالح من بعده، فما سمع أن أحداً منهم فهم من القرآن إلا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ، ثم خلف من بعدهم خلف افتأتوا على النبى وصالح أتباعه ، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب ، فتجلوا للقرآن أعداء فى ثياب أصدقاء، يلزمونه بما ينكره، ويحملونه مالا يحتمله، ويفسرونه طبقاً لأهوائهم، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه عن الغرض الذى أنزل لأجله ، والله يقول: « كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً » ويقول: « إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » ويقول: « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ما كثين فيه أبداً » وكذلك يقول: « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه » ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم .

غفل أكثر المفسرين ، أو جهلوا الغرض الذى أنزل له هذا الكتاب الكريم ، كما كلت أفهامهم عن إدراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى اليه ، فقالوا إن القرآن لم يترك فناً من الفنون العلمية إلا أتى بشىء من مسائله ، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا ، وادّعوا أنه أتى

من كل فن بطرف ، فحملوه من التأويل ماينبوا عنه ، ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ، ووسوست لهم بها شياطينهم ، فشوهوه وألبسوه غير لباسه ، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه ، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين .

لنرجع الى ماذكره أولئك المفسرون فى شرح إرم ذات العماد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأدتاد ، والى ماقالوه فى أمر الزلازل والثور الحامل للأرض ، ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دماً ، الى آخر ماقالوا ، كما ألفتك الى ماقالوه فى تعليل مايشعر به الإنسان من سخونة مياه الآبار فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف ، إذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الأرض كان تأثيرها فى المياه التى فى جوف الأرض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها فى أثناء الصيف . هذا بعض ماأتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى ، فأضحكوا منهم الصبية والبله ، فضلا عن العقلاء من الناس ، كما أنهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم ، فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب ، وأولئك أئمته ، فيالله من الصديق الجاهل .

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه ، فجعلوا يحومون حول المعانى البعيدة ليحملوا عليها آيات

القرآن . الم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين : أحدهما باطنى ، والآخر ظاهرى ، وادعوا أن الرسول الذى أتى به لم يصل الى إدراك مافيه من المعانى الباطنية ، مع أنه يقول مامعناه : أنا أعلم بكتاب الله تعالى ، ولو علمت بأعلم منى به لرحلت اليه ، أو كما قال.

أرعنى سمعك أقص عليه أن المتدبر للقرآن يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ماسئل فى شىء مما لم يبعث لأجله إلا صرف السائل عن قصده ، وتلقاه بغير مايترقب تنبيهاً الى أنه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسائل ، ووظائفهم من الهداية والإرشاد وتبليغ الشرائع . ينوه الى ذلك قوله تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» وقوله: «يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقوله: « يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها » فبيّن الله فى هذه الآيات أن وظيفة الرسل الإنذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هى آتية لا ريب فيها ، وليس وظيفتهم تعيين وقتها . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتا » تدل هذه الآية وماسبق على ماقلناه لك آنفاً من أن النبى صلى الله عليه وسلم فى إجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها ، رجوعا بهم الى السنة الفطرية .

٤ - هل أسس الاسلام على السيف؟

لهج معظم الأوربيين، وضعاف العقول من المسلمين، بأن الإسلام لم ينتشر

ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل ، وتذلل بين يديه العظاء ، وتلجىء المستضعفين الى اعتناقه حقناً لدمائهم ، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم ،وقد ضربوا الأمثال بما أقام النبي صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه ، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده ، على أنهم لو قرؤا القرآن ، وشيئاً من التاريخ ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا شيئاً من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت، لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ، ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم، حتى يرموا النبي صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم إنه لا يسعنى أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الإسلام ، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ، ولكننى أريد أن أتكلم هنا فى الإسلام من حيث هو ، كما أريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه ، لترى أنه صلى الله عليه وسلم مابدأ أحداً بعدوان فى جميع ما أقامه من الحروب ، وما يتذكر إلا أولو الألباب .

لا حاجة لى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الإنفراد والضعف، وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى ، فان هذا مالا يرتاب فيه أحد .

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، فجعل النبي يسارّ بدعوته من يثق بتوقد فكره ، وتمكن من الإنصاف من قلبه ، فلم يسلّ لتأييد رسالته إلا سيف الهدى والحجة الدامغة ، فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفارى ، ومن السابقين الى الإسلام خالد ابن العاص جاء النبي فقال له: الى مَ تدعو يا محمد؟ فقال : « أدعوك الى عبادة

الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والإحسان الى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ماظهر منها وما بطن ، وأن لا تقتل نفساً حرّم الله قتلها الا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قرباك ، وأن توفى لمن عاهدت » ، فأسلم ، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى الإسلام غير مهددين ولا ملجئين ، ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال ، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول فى الإسلام إذ ذاك لارغبة فى جاه ، ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع ، فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة ، واعظم جاها ، وأقوى عصبية ، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى أطاعوه ، وتبعوا شرعه ، واحتملوا الأذى فى تأييده « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .

ثم جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، فسخرت منه قريش ، وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم ، وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ، ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم ، وتقبيح آلهتهم ، فاضمروا له العداء والبغضاء ثم جاؤا الى أبى طالب عمه وقالوا له : إن لك شأناً وشرفا ومنزلة منا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا ، فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه . فقال له : يا ابن

أخى ، ابق على نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيقه . فظن الرسول أن عمه خاذله، فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ثم بكى وولى . وقد صادف النبى على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ما خلد فى التاريخ . ومن ذلك مارواه البخارى قال: « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ».

ولقد عم الأذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد إلا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيداً شريفاً اشتد عليه أذى قريش ، حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ماشاء ، ويقرأ ماشاء ، ولا يؤذى قريشاً بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم ،فلما ابتنى أبو بكر مسجداً بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبابكر فقال : قد علمت الذى عاقدت الله عليه، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع الى ذمتى ، فانى لاأحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له، فقال أبو بكر :فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)

تفاقم الخطب ، وأحدقت الفتن بالمسلمين، حتى عجزوا عن احتمالها، فأشار النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة ، فهاجر منهم عشرة

رجال وخمس نسوة ، فلما أعيت قريشاً الحيل ، عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة ، فهاجر معظمهم .

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش مارأى جعل يخرج فى الأسواق العربية ، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه ، فكان منهم من يردّه رداً جميلا ، ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا ، حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشاً على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لكم فى خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليلا حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ؛ ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا ، فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبى على ماهو فى كتب السنة الصحيحة . فلما علموا بما حالف الأنصار عليه النبى صلى الله عليه وسلم أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جلداً ويجتمعوا أمام داره ، فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم ، فألهم الله النبى صلى الله عليه وسلم بجميع مادبر له أعداؤه ، فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه .

هكذا كان مجمل بدء الدعوة الإسلامية . واننى هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيأ من ذلك ، أو يدعى أن

سيفاً أعمل فى خلال تلك السنين . فما علىَّ إلا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختاراً أشدها وأهمها فى اظهار الدين ، فأقول :
أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش ، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله» وقال : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه. فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فلم يبح الله للنبى مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم ، فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب، أباح الله للنبى أن يقاتل كل معتد عليه فقال : «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» وقال: «وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال ، أتجده يخالف فى شىء ما يسمى فى هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس ؟ كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ، ولم يبح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم .

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله ، وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل اضعاف شوكتهم وفل غرارهم ، حتى لا يتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء مآربهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر

والتأييد، فكانوا يتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء على دينه وشيعته، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم؛ فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل، فكان يرسل السرايا، ويخرج بنفسه فى المغازى، حتى لا تمر عير لقريش الا صادرها، وحرم المشركين مما فيها من الأمتعة، فكان مرة يصيب منهم، وتارة يخطئهم. فمن أكبر الغزوات التى انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى، خرج النبي صلى الله عليه وسلم مترصداً أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعثت به فى تلك العير

(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقى الجمعان، وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة».

(٢) كان يهود المدينـــة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن يصيبهم من أهل مكة مالا قبل لهم به، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التى أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول، فبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، فلقد قال رؤساؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم، وقد حذرهم عاقبة البغى: «لا يغرنك يا محمد مالقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى».

فبنقضهم ميثاقهم، وبداءتهم بالعـــداء سار إليهم النبى صلى الله عليه وسلم

وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، فلما آنسوا من أنفسهم الضعف ، واستولى على أفئدتهم الرعب ، وسألوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، وللمسلمين الأموال ، فقبل منهم ذلك .

(٣) عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتأدية نسك العمرة ، فخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذاناً بانه لم يذهب الى مكة محاربا ، فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ، ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيراً الى قريش ليعلمهم مقصده ، فذهب عثمان وبلغ ماحمل ، فقالت قريش : ان محمداً لا يدخلها عنوة أبداً ، ثم أنهم حبسوه . فشاع أن عثمان قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام حينما بلغه ذلك الخبر : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » . وبايع أصحابه على القتال ، فخافت لذلك قريش ، فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح ، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين .

(٤) ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة فى تلك السنة ، وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ؛ ثم عمل النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح ، فلم يخفر ذمة ، ولم ينقض عهداً ، حتى بدأت قريش بالعدوان .

ذلك أن قد دخل فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة كما دخل فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر ، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة ، وترات قديمة ، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى ، فقام

هذا فضربه ، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر واستشاطوا غضباً ، فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة ، فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ، ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم ، وقتلوا منهم ، فأرسلت خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها .

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينهم وبين المسلمين ، فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر ، فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ، ويمد فى أجله ، فخرج حتى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ماجاء به الى المدينة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان من حدث بعد . قال: لا . فقال الرسول : فنحن على مدتنا الأولى وصلحنا السابق ، ولم يزد عن ذلك . ومن المعلوم أن قريشاً الآن قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق ، وقد شعر بما أضمره النبي صلى الله عليه وسلم لقريش ، فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم فلم يفلح .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر ، وأخبر أبا بكر بما عزم عليه ، فقال له أبو بكر : أوَ ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: نعم ، ولكن غدروا ونقضوا ، ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة ، حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ، ودخل هو من أعلاها ، ونادى مناديه : « ألا من دخل داره وأغلق بابه فهو

آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن »
نعم إنه هدر دم جماعة ، وان تعلقوا بأستار الكعبة ، لأنه اعتبرهم ، كما يقال
فى هذا العصر « مجرمين سياسيين » .

واعلم أنه لم يقاتل فى هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ، ولكن بعد
أن تعرضت له قريش ليصدّوه عن دخول مكة ، فقتل منهم أربعة
وعشرين رجلا ، وقتل من جيشه اثنان ، فكان دخوله مكة عنوة .

ثم أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من
الأوثان والأدناس ، ثم خطب فى الناس ، فبيّن كثيراً من الأحكام ، ثم
ختم خطبته بقوله تعالى : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ، ما ورد فى كتب السنة
الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ، ليبايع النبى عليه الصلاة
والسلام ، فجاء وهو يرتعد خوفاً ، فقال له الرسول : « هوّن عليك فإنى
لست بملك ، انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

(٥) على أثر هذا الفتح المبين ، وتدمير عصابة الوثنيين ، أخذ الناس
يدخلون فى دين الله أفواجاً ، الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الأولى ،
فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف ، وقالوا : لقد فرغ محمد « صلى الله
عليه وسلم » من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن يغزونا ، أما
النبى صلى الله عليه وسلم فإنه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه ، أجمع رأيه على
المسير اليهم ، فخرج فى اثنى عشر ألفاً حتى وصل الى العدوّ ، فالتحم الجمعان ،

وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئاً ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين ، لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأيدهم بروح منه ، فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هى العليا ، والله عزيز حكيم .

هذه هى جلّى الغزوات وأقواها فى تأييد الإسلام ، واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت فى جميع ما قصصته عليك ، وإنه لحق ، أن النبى بدأ أحداً بعدوان ؟ كيف وهذا كتاب الله يقول : « لاعدوان الا على الظالمين » .

ارجع إلى كتب السِّير ، وجرّد نفسك من شوائب التحيز ، فهل تجدن مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا .

وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ ، يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسلّ فى حياته سيفاً لإرغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ، ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء .

ماكان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه ، سالكين طرق العسف والإرهاب ، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة ، كما قال : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

أنظر إلى إبداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح ، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة ، حيث يقول : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من

دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

٥ - وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية ، فتراهم يتشدّقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان ، مختلفة باختلاف أهلها ، فيراعى فى القوانين والشرائع الأماكن ، وطبقات العالم ، ودرجات ارتقائها فى التحضر ، والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات ، التى تتفاصل فيها الأمم ، وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ، ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم ، فحكموا بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبىّ عربىّ ، لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى الا قليلا جداً ، كما أنه لم يعلم ماسيتوالى بعده من الأمم المختلفة ، والأحوال المتباينة ، والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها .

فكأنى بأمثال أولئك القوم ، قد أقاموا على أنفسهم الحجة ، بأنهم لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى ، يسمعون القرآن ، وإنما مثله فيهم كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء ، ويرون آياته بأعينهم ، وأنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم ، أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الإسلامى دين الفطرة البشرية ، التى فطر الناس عليها فى كل زمان ومكان ، صالحاً لكل أمة وكل جيل ، مصلحاً لكل من استمسك بسببه المتين ، وعمل بكتابه المبين .

إعلم أن دين الله فى كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها ، وإنما الذى يختلف باختلاف ذلك هى الأحكام الفرعية ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » وقوله تعالى : « إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الآية .

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به ، وتذكير الناس أن يتمسكوا به ، فما كان له أن يبطل حقاً ، أو ينكر صالحا ، أو يجحد نبياً ، أو يستقبح حسناً ، ولكنه جاء مؤذناً فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب ، وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله ، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً . فلم يأت النبى صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ، ولكن بما قرره الله من الحق ، وأوحى به إلى انبيائه من قبل ، كما قال عز من قائل : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » على أننا نعلم ما تقرر فى الإسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ . فترى من جميع ما تقدم أن الإسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ما سبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة ، سواء ورد بها دين إبراهيم ، أو دين عيسى ابن مريم أو غيرهما . نعم إن الإسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة ،

التى جلبها عليهم عنادهم وظلمهم ، كما قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » ، فانهم لم يزالوا كذلك ، حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصاً على المؤمنين رؤوفا بهم رحيما لهم ، فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفساً إلا وسعها ، فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع ، والعادات ، والقوى البشرية على اختلافها . ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين .

ربما قيل كيف ذلك ؟ مع أن أكثر الأحكام النظامية ، والنواميس التعاملية ، قد وضعها بعد النبى الفقهاء والخلفاء والأمراء ، فلم يحط الإسلام فى بدء نشأته بكل ما يلزم البشر ، من القوانين والأحكام . فنقول : إن جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام ، إنما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف ، من الاجتهاد والقياس ، كما قدروه واعتبروه بالأحكام العامة ، التى قررها لهم الشرع ، على ما سنأتى على تفصيله قريباً ؛ فكل ما جاء مبيناً على قواعد الدين ، فهو دين ، سواء نص عليه الشارع نفسه ، أو استنبطه اهل الفكر والنظر الصحيح ، وهذا هو وجه كون الدين الإسلامى دين الأبد وختام الأديان . ولنأت لك الآن بشىء من قواعد الإسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفاً فتدبره ، فان للدين ، كما سترى ، قواعد أصلية ثابتة ، تقدر بها الأحكام ، حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة ، فى الأزمان المختلفة ، بين الأمم المختلفة .

(١) الأصل الأول : الاجتهاد ، وأعنى به أن تستنبط الأحكام من

الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، حسبما تصل اليه الأفهام السليمة ، فكل من يعرف لغة القرآن ، لا ينبغى له بحال ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه ، وفهم الكتب الصحاح فى السنة ، فلم ينسد ، ولن ينسد ، باب الاجتهاد ، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ، ويقيموا عليها أوصياء من الأولين ، حتى تسير كما ساروا ، وتقول بما قالوا ، فإن السلف الصالح رضى الله عنه ، ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله ، فعمل بما وصل اليه إدراكه ، وبلغه جهده ، ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع ، فإن الله لم يحرم من الأجر أى مجتهد . نعم إنه جعل لمن إجتهد فأخطأ أجراً واحداً ، ولمن اجتهد فأصاب أجرين . إن أمر إنسداد باب الإجتهاد أمر ابتدع بعد إنقراض الصدر الأول منه لأسباب ، منها : انتشار العجمة فى المسلمين ، وعدم استطاعة كثير منهم ، وكانوا لا يحسنون العربية ، أن يفهموا القرآن على وجهه ، ومن الأسباب أيضا فيما أظن ، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم ، وعدم معرفتهم أحكامه ولغته ، وإلا فكيف عموا عن قوله تعالى : « ولقد يسرنا – سهلنا – القرآن للذكر – للتذكر – فهل من مدكر » أى فهل من طالب علم منه ، ومتفهم له فيعان عليه ، أم كيف غفلوا عما قبح الله به الأولياء من المشركين وندد عليهم إذ قلدوا آباءهم ، وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا ، وفيما عملوا حيث قال : « وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا وَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » ، وإذا شئت أن تستقصى ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين ، والتشهير بهم ، فعليك بقراءة القرآن

الكريم ، فستجد منه ما فيه مقنع . وما يتذكر إلا أولو الألباب .

(٢) الأصل الثانى : القصد فى الأعمال ، وإقامة مالا يشق على النفوس من التكاليف ، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فكل ماليس فى وسع الإنسان أن يقوم به ، فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ، ولا يوقعه فى العناء والتعب ، فإن هذا هو مايفهم من التعبير ، بكلمة وسع التى معناها السعة . وعدم الضيق . ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين ، فقد ورد فى البخارى «لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه» وورد فيه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئاً من الدجلة والقصد» ومن هنا لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه ، وأن يتباعد عن المباحات ، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها ، فإن هذا ليس من الدين فى شىء . واعلم أن المتغالين فى دينهم ، أقرب الناس إلى العجز عن القيام به ، واحتمال تكاليفه ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ » وقال : « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وقال تعالى : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال أيضاً : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ومما يناسب هذا الموضوع ، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ، ومنتحليه فى مصر ، وذلك لبس البرطلة ، فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم على من قال بحل لبسها للمسلم . فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقوّلوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . إن البرطلة ليست لباساً دينياً وإنما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل ، فمنهم النصرانى ، ومنهم المجوسى ، ومنهم اليهودى ،

ومنهم العربى المسلم ، يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها. نعم إنها تختلف أشكالها وصورها ، ولكنها ذات اسم واحد ، تندرج تحت نوع واحد .

فإن كان شبهة أولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبى صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح ، قلنا إن هذا لا يقتضى التحريم ، فهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم العمائم التى فوق رؤوسنا أو القفاطين التى تتدلى أكمامها ، أو الجبب (الفرجيات) التى يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه ؟

فليفقه أولئك القوم أنهم يقفون ماليس لهم به علم ، والله تعالى يقول : « ولا تقف ماليس لك به علم » إن الطيالسة التى استعملها العلماء فى خلافة العباسيين إنما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم ، كما أن هذه الجبب الواسعة المستعملة فى مصر ، إنما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية.

واعلم أن موضوع هذا الباب ، تحرج كثير من شبيبة المسلمين ، أن يؤدوا مافرضه الله عليهم من الصلاة حتى إذا سألتهم فى ذلك قالوا : إننا لا يمكننا التحرز من النجس ، لاسيما قطرات البول ، وكثيراً ما يقضى الإنسان حاجته ، فلا يجد من الماء ما يتطهر به . ومنهم من يقول : إن من المشقة أن أخلع نعلىّ ، وألبسهما عند كل صلاة ، ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين ، لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة ، التى تكون عادة فى الطرقات . فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى ، وناهيته عن الفحشاء والمنكر ، إنصياعاً لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون .

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين مارواه البيهقى مرفوعا «إذا جاء أحدكم المسجد،فليقلب نعليه،فلينظر أفيهماخبث، فإن وجد فيهما خبثاً فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما» وما رواه البيهقى أيضا عن أم سلمة« إنها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشى فى المكان القذر، فقالت أم سلمة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهره مابعده» وفى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه: قلنا يارسول الله إنا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « الطرق يطهر بعضها بعضا » وفى حديث البيهقى مرفوعا : «إذا وطىء أحدكم بنعليه فى الأذى فان التراب له طهور »وقد رأى المالكية أن المتعمد فى مذهبهم أن إزالة النجاسة سنة أعنى أنها لاتبطل الصلاة بوجودها وإن كانت مكروهة معها . فلمَ لا يصلى ذلك المسلم فى نعليه؟ ولِمَ لا يصلى وفى سراويله قطرات البول ، ولم يسهل عليه التحرز منها ، ولِمَ لا يصلى المسلم فى بلاد لم يستطع ان يستنجى فيها ، أيظنون أن الله يريد بهم العسر مع أن الله يقول فى قرآنه: « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

(٣) الأصل الثالث : من أصول الإسلام أنه لاضرر ولا ضرار ، فلا يجوز لمسلم أن يفعل مافيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله، كمالا يجوز له أن يضار غيره ، فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق ، وشرب المسكر ، والمقامرة ، وإيذاء الغير بأى نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم ، كقتل النفس، والسرقة ، والرشوة ، والخداع، والتمويه ، والتدليس ، وشهادة الزور ... وهلم جرا .

لعلك اطلعت على ماقرره الفقهاء من إباحة التخلف عن الجمعة لأسباب

كثيرة . منها أن يكون بالإنسان بخر ، او رائحة ثوم أو بصل ، أو به مرض معد كالجـــذام والبرص ونحوهما من كل ما يضر ، أو تشمئز منه نفوس المصلين . ولا يخفى أن هذا الأصل ينبنى عليه كثير من الأحكام الفرعية ، والنوازل اليومية فى كل عصر .

(٤) الأصل الرابع: سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد و الغايات، فكل ما أفضى إلى مباح فهو مباح ، وكل ماوصل بك إلى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعـك فى محرم فهو محرم ؛ فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحـكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلا ماجاء به الشرع من أباحة تعدد الزوجات ، فان هذه الأباحة قد قيدها الشرع بقيود منهـــا : العدل ، ومنها : ان لا يفضى التزوج إلى ضرر أو محرم أو فساد، فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق ، وإفساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها،أوقسوة عليهم ، وايذائه لهم ، فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعدد الزوجات بما تفضى إليه من المضار يمكن الحـكم بأنه لا يباح للرجل تزوج أكثر من واحدة إلا لمن أمكنه أن يقوم بجميع ما شرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد

(واعلم) أن من أهم أصول الدين الحنيف إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به، فاذا غلب على الظن ان العمل مفض إلى محرم او مكروه فإنه يعطى حكم غايته، فيحرم او يـكره، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق ، حتى ينبنى عليـه تحريم ذلك على الرجال ، فإننا على تسليم أنه غير محقق جدلا ، لايسعنا أن ننكر أنه أمر

غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقيناً .

(٥) الأصل الخامس: من أصول الإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بى هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الإسلام والنصرانية إذ قال ما نصه :

« إتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ننظر اليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما يدل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ، وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيل من امامه جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد . فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ماهو أبعد من هذا ، وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ، إذا لم يسعهم هذا الفضاء ، إن لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وابعادها » ...اه

ولا يخفى أن تقرير هذا الأصل فى الإسلام ، يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدى لم يلزم العقل ان يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه ، بل انه فوق ذلك قدمه فى العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول .

إباحة التجمل بأنواع الزينة

قال الأستاذ الإمام فى كتاب الإسلام والنصرانية ما نصه :

« أباح الإسلام لإهله التجمل بأنواع الزينة ، والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال ، وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية . جاء فى الكتاب العزيز : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرَّم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لاتعلمون » . ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنابهافضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » ثم قال : «وهوالذى سخرالبحر لتأكلوا منه لحماً طريّا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ...اه

(٧) الأصل السابع : وجوب إمتثال ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم شرعاً

دون ماذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأى .

(إعلم) أنه قد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة ، وإقامة العدل فيهم ، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة . وبينا أيضا ان الإسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وقد علمنا النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وبينه بأجلى عبارة وأوضحها ، كما روته الكتب الصحيحة ، فلنأتك هنا بشىء مما ورد فيها : —

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال مايصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحون، يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظن يغنى ذلك شيئاً . قالوا : فأخبروا بذلك ، فتركوه،فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل .

(وروى) مسلم أيضاً عن رافع بن خديج قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل، فقال: ماتصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً ، فتركوه فنقصت، قال فذكروا ذلك له،فقال : إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىءمن رأيى فإنما أنا بشر .

(وروى) أيضاً عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون ،

فقال : لو لم تفعلوا لصلح، قال فخرج شيصاً، فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ قالوا: قلت كذا وكذا ، قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم

كأني بك ترى ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ، وهو سيد المنصفين ، صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر ، وأن أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم ، وأن عصمة الرسل إنما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئاً من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم أنه لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع .

(٨) الأصل الثامن : المساواة بين المسلمين فى الأحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد ، فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فلا يفضل أحد أحداً فى إعتبار الشرع إلا بالتقوى والعمل الصالح « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فقد جعل الله الغنى والفقير ، والمأمور ، والأمير ، والعزيز والحقير ، سواء فى أحكامه ، سواء فى ذلك الأحكام الدنيوية والأخروية ، وأعتبر ذلك بصيغ العموم ، التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم، طالما حابوا الأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصاً منهم على استرضاء من لا يضرون ولا ينفعون ، راضين بما سخط الله عليهم ، إذ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الأقوال ، وخالفوا أمر

القرآن كما فى قوله: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات» وقال تعالى: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء» وقال تعالى: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وإذا أردت أن تأتى على ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة.

(٩) الأصل التاسع: ان لاتزر وازرة وزر اخرى، ففى سورة الطور: «كل امرىء بما كسب رهين» وفى سورة المدثر: «كل نفس بما كسبت رهينة» وقال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وفى سورة النجم: «ان لاتزر وازرة وزر أخرى وإن ليس للإنسان إلا ماسعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى».

ولا يقال إن من احكام الشريعة ما لا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عاقلة القاتل، وكما يؤخذ من قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» لإنا نقول إن أمر الدية إنما الزمت بها العاقلة فى الشعوب التى لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يداً واحدة على من سواهم، فاذا أصاب أحدهم شىء تعاهد الباقى على الأخذ بثأره او المطالبة بديته، كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن، ولذلك نجد الفقهاء ينصون على أنه لا عاقلة فى الأمم التى لا تتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الأمم التى لا أثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى او البطن او القبيلة كأنها رجل واحد فاخذهم الشرع كما اخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم، وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الإسلام

مطابقاً للأحوال البشرية ، ملائماً لها على اختلافها .

(١٠) الأصل العاشر : ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الإمام او من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقاً لما يقتضيه العرف العام كما ان من اصوله جواز التحكيم .

واعلم ان الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع امر تحديده إلى الحكام ونوابهم ، فقد أجمع الأئمة على ان التعزير مشروع فى كل جناية لا حد فيها ولا كفارة ، وجوّز الإمام مالك للإمام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة .

أما التحكيم فقد أجازه الشارع فى الأصول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى للفصل فيما شجر بينهما ، وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار قول الحكم أمرا مقضيا لا يتوقف فى تقريره وثبوته على أن يقرره قاض شرعى ولا أمير ولا حاكم .

(١١) الأصل الحادى عشر : تقدير كثير من الأحكام بما تعورف بين الناس . ولا يخفى أن هذا الأصل قد أوسع دائرة الأحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها ، فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين ، فرُبَّ نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم أخرى ، وقد كثر التعبير بكلمة « المعروف » و « العرف » فى القرآن العزيز ، وعلق عليهما تقرير كثير من الأحكام ، ومن البديهى أنه لا معنى المعروف والعرف إلا

ما كان متعارفا مألوفاً غير مستنكر ، كما أن المنكر هو مالا يجرى به عرف و ألفة، فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى : «طاعة وقول معروف» وقوله: « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وقوله : « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » وقوله تعالى : «فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف» وقوله :«وأتمروا بينكم بمعروف» وقوله:«وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وقوله : « وان جاهداك على ان تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » وقوله فى شأن الأوصياء : «ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » فترى فى هذه الآيات ، وكثيراً غيرها ، ان الله تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات ، إلى ماجرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة او اهل المدينة او غيرهما ، بل اطلق الأمر إطلاقا ، ولا ريب ان العرف يختلف باختلاف اهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ، ولذا كان من القصور تعرض بعض من الفقهاء إلى تحديد مثل متعة المطلقة او نفقة الزوجة ، وتقدير كثير من الأحكام بماجرى عليه عرف اهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما ان من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير مايتبادر منها ، فإن هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام ان القرآن قد اتى بألفاظ اخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال . فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات » و « صالحا » فى

كثير من الآيات ، فإن المراد من مادة الصلاح هنا ماليس سوءاً كما يؤخذ من قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً » فإن هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وأن كل مسيء فهو غير صالح وأنه لاصلاح في سوء ، فيدخل فى ذلك الملك الجائر ، والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى أصبحت لاتزداد إلا نقصاولا تعظم إلا فساداً فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لاشائبة صلاح فيه ، ولو قطع الليل تسبيحاً وقرآنا . ومن هنا فسر استاذنا قوله تعالى : (إن الأرض يرثها عبادى الصالحون) بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لأنفسهم ما استطاعوا من القوة وأحسنوا إلى أنفسهم فكاتفوا الأمم فى الأخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات إلا من أسبابها ، ولم يأتوا البيوت إلا من أبوابها .

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة إذ قالوا إن التوكل هو تفويض الأمر إلى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة ؛ ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال مايزيد عن حاجاته ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » كفاه الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية . ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيراً من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

ندّدت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالإسلام والمسلمين ، لما نزل بهم من الضعف ، وانحلال العقدة والفشل ، وزعموا أن منشأ ذلك هو أصول الدين الإسلامى ، محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين ، وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو: «وعلى الله فليتوكل المتوكلون» ونحو: « إنى توكلت على الله ربى وربكم » ونحو: « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ونحو ما ورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .

إننى لا يسعنى هنا أن أفند جميع ما قيل فى هذا المقام لضيقه ، ولكن حسبى أن أنبهك إلى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة ، وبرهان واهن ، فإن نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الإسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد ، لم يصبهم إلا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما ارشدهم اليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية ، فانه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من لحمة السببية . فالتماس تلك الأسباب لا ينافى التوكل فى شىء، بل انه نفس التوكل، وما تفسير اولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق ، والتقاعد عن الكسب والتحصيل ، لما أفضى بهم إلى الإضمحلال ، فإنما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم .

ذلك الرسول، وهو سيد المتوكلين، يرشدنا بقرآنه ، وبجميع أعماله إلى أن لكل شىء سبباً لا يمكن الحصول عليه إلا باتخاذ ذلك السبب . او

أو ما سمعت قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وقوله: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ونحو: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» إلى غير ذلك من الآيات.

على أنك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم: لرزقكم كما يرزق الطير ... الحديث، لتجلى لك الأمر واضحاً لا لبس فيه، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل — لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها أغذيتها — بل قال تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الأرض وقال: مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقال رجل من القوم: ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يارسول الله! قال: لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ: « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ».

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة، وأنها من الأمور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها، فقال فى الكتاب العزيز: « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » ومن ذلك أيضا قوله تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (أى أكثرنا) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فليتق الله المسلمون فى دينهم، وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها، وعرضوه بسببها إلى طعن الطاعنين وغلو الآفكين.

والخلاصة إن الدين الإسلامى، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة وأشباهها، جاء صالحاً لأن يبتغى بواسطة كل خير فى كل زمان ومكان. ومن هنا يتضح لك جلياً وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، وأن شرعه خاتم الشرائع الإلـهية، كما أنه لم يخالف فى شىء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها، ولذلك لا حرج علينا فى تسميته «دين الفطرة».

وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الأمم، قصار النظر، فرأينا أن نأتى عليها هنا تتميما للغرض الذى وضعنا له هذه العجالة، إلا أننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين، وما يجب أن يكونوا عليه، وأكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هذا الزمان، والله يوفقك إلى سبيل الرشاد:

(١) قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين «ولا يجرمنكم: شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله» أى لا يحملنكم بعض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام، على أن تعتدوا عليهم، بل يجب عليكم العدل، كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الإحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة أوامره، وفى معنى ذلك قوله تعالى: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى» فإن الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ما تكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه، بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل، فإنه اقرب للتقوى.

(٢) وجاء فى سورة النور « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » .

نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه ، حتى إذا دعوا إلى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم أنهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالإثم، فاعرضوا عن احكام الله وهم ظالمون، ولكن إذا كان لهم الحق جاءوا إلى المحاكم سراعاً مذعنين، وقد بين الله تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين فى شىء ، وما كان للمؤمنين إلا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا إلى قضاء الله وأحكامه سواء كانوا ظالمين أو مظلومين .

(٣) وجاء فى إفتتاح سورة المؤمنون : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون » ، إلى أن قال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون » فليت شعرى كيف يكون لمؤمنى هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم فى اعتبار الشرع مؤمنون ، مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون ، والذين هم على اللغو مقبلون ، والذين هم للزكاة مانعون ، والذين هم لشهواتهم مرضون ،

والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون .

(٤) وجاء فى سورة الأنفـــال : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » إلى أن قال : « أولئك هم المؤمنون حقاً » .

(٥) وفى سورة الحجرات: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمـان فى قلوبـكم » إلى أن قال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف ، وانظر إلى استعمال الحصر هنا فى قوله « إنما » ثم تأكيده ذلك بقوله « أولئك هم الصادقون » .

(٦) وجاء فى سورة الممتحنة: «يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن » يؤخذ من هـــذه الآية الـكريمة أن ليس الإيمان مجرد النطق بالشهادة والمبـايعة على أن محمداً رسول الله ، فإن هذا لا يكفى ، ولقد بـيّن الله فى هذه الآية البيعة التى يـكون بها المؤمن مؤمناً ، فتدبرها حتى تعلم مبلغ إيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك أيها المؤمن أتجد فيما وصف الله به المؤمنين: اتخاذ المسابح ، وإطالة اللحى، واختضاب الشعر، وتحديب الظهر، وملازمة الزوايا ؟ ألا إن الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به .

الخلاصة : إن من آثار الإيمان القلبي الصادق إقامة ماوقع الإيمان به ، وملازمة محدوده ، ومخالفة وساوس الصدور ، فمتى رأيت من ينقاد إلى شيطانه ، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته ، فاعلم أنه غير مؤمن أومارأيت ماقاله تعالى فى قرآنه الكريم : «إنه ـ أى الشيطان ـ ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم أنه غير مؤمن . أفيحسب أولئك الضالون أنهم على شىء ، وقد جاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال : مافى القرآن أشد علىّ من قوله تعالى « ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم » ـ أى القرآن ـ ومعنى إقامة هذه الكتب امتثال جميع مافيها ، والإتيان به على وجهه ، فإن جاء العمل دون ذلك ، فانه لا يسمى إقامة، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الأحكام، فكيف لأحد بعد ذلك أن يدعى أنه على شىء من الإيمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل مافيها .

ومن هنا يتضح أن الإيمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل ، وهذا والله أعلم سر مارواه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

قال القسطلانى : الإيمان هو التصديق بالقلب ، والاعتراف باللسان ، ـ وتقرره الأعمال الصالحة ـ واجتناب المناهى، فإذا زنى، أو شرب الخمر ، أو سرق، ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه ... اهو مثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ، ولكنها لا تعمى الأبصار .

هذا والمستقرئ لعبارات القرآن الكريم ، قلما يجد فعلا أو وصفاً مشتقاً من الإيمان إلا وهو مشفوع بعمل الصالحات، فمن ذلك قوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله : «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً» وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول إلى أن مجرد معنى الإيمان فى اللغة، أى الاعتقاد ، لا يكفى فى إلحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الأعمال . واعلم أن الله تعالى قد ضمن الأمن والهداية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور، فقال : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ومن هنا نعلم أن الإيمان لا ينجى صاحبه من النوازل والمصائب ، حتى يقرن كما قلنا ، بالعمل الصالح . ولنا من نوازل هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان،فليقصر أولئك الأخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

٦ - الرق فى الاسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة

تمهيد — كانت القوانين فى الأزمان السالفة غالباً من الأوضاع البشرية، فكان يسن الفرد أو الأفراد ماشاءوا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الإنسان فيما لهم وما عليهم .

كان محض إرادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها ، فكان عدم تساوى الأفراد فى القوى الجسمية والعقلية ، الذى اقتضته سنة الكائنات الحيوية، هو منشأ تسخير القوى للضعيف ، وغلبته عليه ،حتى أفضى ذلك بعد إلى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك ، وقاهر ومقهور .

إن استخدام شخص لآخر ، واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر ، هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الإنسان ، فإن من استقرأ التاريخ وجد أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى أهله، وجدت أجرامه فى كل جاهلية ، ثم تعدتها إلى ما كان معها من الأمم المتحضرة، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة إليه وزوالها أصـــلا ، فلقد عرف الاسترقاق فى اليهودية واليونان والرومانيين، كما عرف بين قدماء الألمان ولقد أفرط الأخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك .

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق : أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئـة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دين عليـه ، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى ست سنوات عليـه فى خدمة من هو فى ملـكه إلا إذا فضل البقاء رقيقاً. والنوع الآخر : استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شىء من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وإرضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم ، فـكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ، ويعاملونهم أقبح من معـاملة الحيـوانات العجم ، سواء فى ذلك العبيد المستخـدمة فى المنازل ، وعبيد الحقول والمزارع ، فإنهم كانوا يقضون حيـاتهم مبغضين ، مهينين ، معزولين، محقرين ،مسخرين،ثم جاء المسيح عليه السلام،فلم يمنع الاسترقاق، ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدى يوما ما إلى نسخه أو تقليله، نعم إنه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق ، وببعض نصائح للسادة ، ليمكنوا

الرقيق من تلقى ماجاء به المسيح عليه السلام، من قواعد دينه، على أن كثيراً من الأمم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق، وأقساهم فى معاملته.

انتشر الاسترقاق بين الرومان، منذ نشأتهم الأولى، من غير تفريق بين من كان رومانياً أو أجنبيا، فكانوا يملكونهم إما بحرب أو شراء أو اختطاف، ولا يعتبرونهم إلا متاعا، ولقد تغالوا فى السيطرة عليهم؛ فلقد كان للسيد ان يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله، نعم إنه قد هذب هذا القانون بعد، حتى خفف فى الجملة على الأرقاء أعباء ما كانوا يحتملون، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة، فلقد كان لأمراء الرومان وأشرافهم الألوف من الأرقاء، يستخدمونهم فيما شاءوا، ويوقعون بهم من الآلام ماشاءوا غير مسئولين عما فعلوا.

إن دخول الدين المسيحى فى أوربا لم يقلل من الاسترقاق إلا من جهة واحدة، ذلك أن الرقيق كان يصير حراً بالرهبانية، وانقطاعه إلى خدمة الدين، على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيه فى خلال ثلاث سنوات، أما من الجهات الأخرى فإن الاسترقاق بين مسيحيي أوربا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس. ولقد جاء فى جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الأمور الطبيعية، كما أنها قدرت أثمان العبيد، واعتبرت فى تقديرها مايحسنه الرقيق من المهن والأعمال. ومنها عدم إباحة التزاوج بين الأرقاء، ولا بينهم وبين الأحرار، وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة، فيما إذا تزوج الرقيق حرة، فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل، وقضى على الزوج أن يحرق حياً. كان ذلك حال الاسترقاق فى

أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام .

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية، وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية، لم يقف أمر الاسترقاق إلى الحد الذى كان مألوفا عند سلفهم، بل كان لأشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل، والرأى الأعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت أيديهم، فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم، فلم يكن فى ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود .

على أن الكنائس فى أوربا قد اتخذت الأرقاء، وأباحت لغيرها اتخاذهم، كما أن كثيراً من الناس كانوا يذهبون إلى استحسان ذلك، واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال، ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق . (وأعلم) أن اقبح أنواع الاسترقاق ما كان فى أمريكا الشمالية، ولم يزل فاشياً فيها، حتى كانت الحروب الدينية، التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية .

نحا كثير من الأمريكيين نحو ما كان عند الأمم السالفة من اليهود والفرس والرومان، على ماهم عليه من العلم الغزير، والتحضر الذى لم يسبقوا اليه، فكان الامريكى الأبيض النصرانى يملك الأمة السوداء، ويولدها البنين، على أنه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه .

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق

أو ينافيه ، كما أن الأمم المسيحية ، على اختلافها وتباين مشاربها ، كانت لاتبالى أن تسترق من شاءت ، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت ، وتعامله كماشاءت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم ، فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم، فتعاهدوا هم وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الإنسان ، والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض إلا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية . على أننا شاهدنا بأنفسنا أحوالا استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل ، بل روعيت فيها مقتضيات النظام . فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا حديثاً بلاد السودان المصرى ، فهمَّ العبيد الذين كانوا هناك بمغادرة ساداتهم لعلمهم ان الحكومات النظامية المتحضرة ، هى حامية الحرية ومؤيدتها ، فلما رأت الأمة الفاتحة ان هذا لابد ان يفضى إلى تعطيل الأعمال ، وارتباك الأحوال ، وبوار الحقول والمزارع ، أقرت ما كان على ما كان ، وجارت أحكام الزمان والمكان .

وإذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية ، فدونك ما فعل الإسلام فى الرقيق والاسترقاق :

(١) سوّى الإسلام بين الأمم من غير اعتبار اختلاف أصنافها والوانها، فسوّى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنساء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ماداموا فى سلم .

أنظر إلى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة، أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الإسلام ، أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، أو من فاضل ومفضول ؟ كيف والله تعالى جعل

المؤمنين إخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتاً إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به — كتاب الله — لن تضلوا بعدى. أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربىّ فضل على عجمىّ إلا بالتقوى » .

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن، وهم فى مقدمة الأمم حضارة وعلماً ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم، وتجنبوهم وحرموهم كثيراً من المزايا التى استمتع بها البيض، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم ، حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم ، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها .

زعم كثير من الناس ، لا سيما من غير المسلمين ، أن الإسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض ، مستدلين على ذلك بما كان يفعله النخاسون من أهل البادية ، وأهل السودان ، وكثير من الأتراك ، وقد تقدم لنا أنه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده ، بما يفعل أهله ؛ فإن هذا من العبث الذى ينبغى أن تصان عقول العقلاء عنه .

إن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعيــة . لم تقم إلا لإعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى

فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب ، التى أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم ، لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش ، مع العدوان على الغير ، لا يجوز استرقاقهم بحال ، سواء كانوا مسلمين أو غيرهم ، كتابيين أو وثنيين أو مجوسا .

أما استرقاق غير المحاربين ، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب ، كعبدة الأوثان ، فقال مالك والشافعى وأحمد فى إحدى روايتيه إن ذلك لا يجوز مطلقاً ، فماذا ترى فيمن يذهبون إلى الصحارى ويختطفون ماوصلت إليه أيديهم من السودان وغيرهم ، ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع ، فيعرضونهم فى الأسواق عرض الحيوانات العجم ، وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى فى كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين ، يجيئون إليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ، ثم يسوقونهم إلى بيوتهم إما للخدمة وإما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التى ينتجها افتراش ابتنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ إن الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة ، وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس ، قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ماشاءت أن تسول ، فافتاتوا على الله ونسبوا إليه مانسبوا ، متقوّلين عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم .

(واعلم) أن هناك نوعا من الاسترقاق ، فشا فى المسلمين أيضا ، وهو لا يبيحه الشرع أيضاً ، ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم ، قد يحدو بهم الفقر المدقع ، إلى جلب بناتهم بأيديهم إلى أسواق بعض المدن الإسلامية وهن صغار جداً ليبيعوهن إلى الأمراء والمثرين من الرجال ، ولقد يكون

منهن المراهقات والنساء ، حتى إذ صارت إحداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشاً ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع إلا نفسه من حيث لا يشعر ، فيظل طول حياته مستبيحاً ما حرمه الإسلام ، ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الأوهام .

هذا . ولنعد بك إلى ما يتعلق بالرقيق فى الإسلام ، فنقول :

(٢) كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله .

(٣) مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبى عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل .

(٤) للرقيق فى الإسلام أن يتزوج بنت سيده ، فينقلب بذلك سيد البيت .

أين هذا مما سبق لنا نقله ، من قوانين أوروبا فى القرن الثالث عشر ، من تحريم التزاوج بين الأرقاء ، وكذا بينهم وبين الأحرار وأنه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد ، كما يجب احراقه حياً .

(٥) جاء الإسلام فوضع من الأصول والنواميس ، ما كاد يقضى على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك على ما نعلم فى أمر الاسترقاق ، وبديهى أنه لا يمكن أن يزيل النبى عليه الصلاة والسلام فى بضع سنين امراً ألفته النفوس ، واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يرغب الناس فى العتق ، كما جعل هناك احوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

(١) إخبار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بأن العتق من أجلّ العبادة ، وأقربها قبولا عند الله .

(٢) أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الإيمان .

(٣) أن مكاتبة العبد مستحبة بالإجماع ،وللإمام احمد فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قـــدر قيمته او اكثر ، وأن للعبد الاستغلال ، ليحصل على ما يدفعه لسيده من نجوم الكتابة، وان على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

(٤) إذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه مابقى ، فالحنفية تجبره على الأداء . وإذا لم يكن معه مال ، ولكنه قادر على الكسب ، فالمالكية تجبره على الكسب ، لأنه ليس له تعجيز نفسه مادام قادراً عليه .

(٥) يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق ، فأقل وعدمن السيد،أو أقل احتمال للوعد بالتحرير ، يجعل التحرير ضروريا .

(٦) اتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام ، فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فترى فى هذه الصورة أن قاعدة « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق ، فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ، ولا يخفى مايدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ، ماوجد لذلك سبيلا .

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب مايستعين به على فك رقبته ، أو أن يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم .

(٨) إن من افترش أمة ، وأتى منها بأولاد ، فهى أم ولده لا يجوز له

أن يبيعها ، ولكنها لا تتحرر تماماً إلا بعد موته .

(٩) استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالأرقاء خيراً ، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين ، فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه مالا يطيق من العمل ، أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير ، كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم فى المأكل والملبس ونحوهما .

٧ - المرأة فى نظر الاسلام

قبل التكلم على المرأة فى الإسلام، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الأمم المختلفة ، ثم نردف ذلك ببيان مامنح الله المرأة فى الإسلام، غير معولين فى جميع ذلك إلا على كتاب الله تعالى وسننه الصحيحة .

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة ، كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل ، حتى ضربت بهم الأمثال . أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء ، من غير وقوف عند حد ، ولا تقيد بشرط ، ولا سؤال عن حق ، ولقد كان له أيضاً أن يتخذ من الأخدان من شاء .

فإذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع ، فلقد كانت المرأة بين وثني العرب معتبرة سلعة محضة ، فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث ، حتى كان للابن الوارث أن

يفترش زوجة أبيه أو أمته، كما كان له أن يهبها لمن شاء، وأن يبيعها ممن شاء، هذا عند وثني العرب .

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنا من ملك اليمين، فلقد كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها، كما كان لابنه الذكر ان يفعل ذلك .

وكانت العرب، وثنيهم ويهوديهم، يتزوجون من النساء، ولا يقتصرون على عدد، كما كان نكاح المتعة فاشياً فيهم، حتى جاء الإسلام فأبطله على ما يأتى .

كانت العرب تئد البنات، إما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن، حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات » .

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم، فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأناً ولا أكثر حرمة منها بين العرب .

ومن المعلوم أن أحسن القوانين مالا يشتمل على التضييق، ويلائم فريقاً دون فريق، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك النواميس التى تلائم، بلا ريب، أرقى الأمم تحضراً وأصدقهم فكرا، كما تلائم وتنطبق على الأمم الذين لا يزالون فى مهد الفطرة الأولى .

ساوى الإسلام بين الذكران والإناث فى جميع التكاليف الشرعية، إلا فى أحوال خاصة قليلة، كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية، وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر، وان يبيع ويشترى ويعقد ماشاء من العقود، مادام عاقلا رشيداً .

جاء بذلك الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً، فتمتعت النساء بما ملكت

أيمانهن من غير توقف على إذن زوج أو تقرير مسيطر، مع أن معظم أمم أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها، اللهم إلا ما أدخلته الحكومة الانجليزية، وقليل غيرها من أهل أوروبا، منذ ثلاثين سنة، من القوانين التي خولت المرأة فيها شيئا من ذلك، ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل.

جاء الإسلام وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم، لا تقرأ ولا تفهم، ولا تستفتى في أمر، ولا تقضى، ولا تأمر ولا تنهى، فهلا علمت ما فعل الإسلام؟ جاء النبي فكان في بيته أحسن أسوة للمسلمين، وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات في شأن النساء، حتى أصبحن ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف.

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وأناثهم «واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة» فكان الرجل «وكان ما كان في الجاهلية» يأتي إليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الأخلاق، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع إلى رشدها، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف، أو الشعوب أو الأمم، في التفاضل. فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» لم يقل الله إن الرجال قوامون على النساء، مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية، أو لأن عقولهم تخالف عقولهن، ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل

الفضل ، كما جعل من العلل أيضاً ماقد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ، ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالأيام فى طلب العلم ، حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها . كلا إن الله لم يجعل التفاضل إلا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : « هل يستوى الأعمى والبصير . أم هل تستوى الظلمات والنور » .

أباح الشرع المرأة ، مادامت من أهل التصرف فى مالها ، أن تتزوج بنفسها ، وأن توكل غيرها فى زواجها ، ولا اعتراض عليها إلا أن تضع المرأة نفسها فى غير كفء ، فهناك يعترض الولىّ عليها ويطلب من القاضى فسخ زواجها .

جعل الشارع المرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت .

فى الدر « إن تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين : « هذا مقيد بما إذا ابتدأت المرأة فقالت : زوجتك نفسى على أن أمرى بيدى ، فقال الزوج : قبلت » اه بتصرف .

ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر ، إذ قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن فى هذا إجحافا بحقوقها ، ولكنا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها ، وذلك أن المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها ، فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ،

ويأتى إليها بمطالبها ، كما يقتضيه عرف القبيل الذى هما فيه ، فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها .

فأين حجر الإسلام على المرأة وأين التضييق عليها من هذه المسامحة ؟

٨ - فصل فى تعدد الزوجات فى الاسلام

تقدم لنا التلميح إلى ماحشا به الأوربيون كتبهم ، من الطعن فى الإسلام ، متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ، ويفقهون كتاب الله وقواعده ، ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه .

إن النقائص التى مثلت بالإسلام فى أعين غير أهله ، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح ، ميزاناً لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ما ليس من دينه فى شىء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعاً إلى الزلفى منه ، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر مارضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون .

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ، ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط إباحة تعدد

الزوجات بالعدل ، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافيا فى تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا. فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ عجباً أغفل الناس كثيراً من القواعد الاسلامية التى يجب تقدير الأعمال بها وزنة التصرفات الإنسانية بميزانها .

واعلم أن المعتزلة ، وهم كما تعلم من المسلمين ، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية مادامت الأولى فى عصمته ، كما ذكره الأمير على فى كتابه « سر الإسلام » وماذلك إلا لأنهم تتبعوا مايجلبه ذلك من المفاسد والمضارة ، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إعطاء الوسائل ماللغايات من الأحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه .

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتاً ، وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التى تقتضى ذلك . ولأضرب لك مثلا : رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن ، ورجلا تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوماً ، ورجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل ، وهلم جرا . فأمثال هؤلاء الرجال إما أن يصبروا مع العنت والشقة ، وقليل الصابرون ، وإما أن يأتوا الفاحشة ، وأولئك هم الخاطئون .

إننى لا أرى ، كما يرى كل عاقل ، أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه مابلغت ،

اسلم عاقبة من إتيان الفاحشة، ومن الشواهد التي يحسن ذكرها مانقله الأمير على في كتابه « سر الإسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية : إنها تاملت في أحوال كثير من البلاد الإسلامية أو الشرقية إجمالا ، فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها المرافق ، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل المرافق والأخذ بأسباب العيش ، وقد رأت تلك السيدة أن هذه إحدى الضرورات التي يخول معها التعدد .

جمعتني المصادفات برجل إسباني قابلته في لوندرة ، فمكثنا نتحادث في كثير من مسائل الدين الإسلامي ، فما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات ، فقال : إنه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته . فسألته في ذلك فقال : إن امرأتي قد أصيبت بجنون ، وهاهي تلك تعالج في بيمارستان « مجريط » ولها على ذلك سنون كثيرة ، ولقد اضطرني الأمر أن أتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتي التزوج بأخرى ، فلو أن هذا كان مباحاً لنا لكان لي عقب شرعي يرثني فيما لدي من المال الكثير ، ويكون لي قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه .

ثم تقابلت في اكسفورد مع دكتور فاضل ، وقد جرت عادة الانجليز أنهم متى رأوا غريبا سألوه في جميع ما يلج في صدورهم . سألني ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات في الاسلام ، وذكر أنه يستقبحه ، فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الأسباب ، ثم قال : إنني أكاد أرى وجه ما تقوله ، ولكن لي كلمة في نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ماهي؟

قال : إن منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات . فعند ذلك قلت له : إننى ياسـيدى كثير التجارب ، وقد رأيت فى الانجليز وفى المصريين والاتراك والفرنسيس وغيرهم من الأمم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله مادام يملك شيئا من المال ، وهذا أيها السيد أحد الأسباب فى قلة عدد ذرارى الأغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ، ولو ملكت أيديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا ، أفتنكر بعد ذلك أن تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة ، وأضمن لنمو بنى الانسان ؟ فما كان من ذلك الفاضل إلا أن قال : إن معظم ما قلته حق لا مراء فيه . ثم ذكرت له أسباب إكثار النبى من النساء مما سنأتى عليه بعد ، وإنما لم أبدأ بذكر تلك الأسباب لأننى قصدت إلزامه من أول الأمر بضرورة تعدد الزوجات فى بعض الأوقات أخذاً مما عليه الناس فى أحوالهم الدنيوية ، التى لايسعه إنكار شىء منها ، فلما أضعفت من قوة تعصبه ، وفللت من حدته ، أخذت أسرد له الأسباب التى لم يجد لإنكار شىء منها سبيلا .

والخلاصة أن اعتبار كون تعدد الزوجات مصدراً لكثير من المفاسد ، إنما هو أمر إضافى ، ولا يمكن اتخاذه حكما عاماً ، فإن ذلك يختلف باختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة والأحوال . انظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج رأساً وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية .

ولقد قضت الرهبانية فى الأعصر الخالية ان يقبر فى الديور كثير من العقول الذكية ، التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة ، أما منشأ

ذلك فقد كان إما تقليد المسيح عليه السلام، أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق إلى عبادة الحق تعالى ، ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية ، قالوا : ان المسيح عليه السلام روح الله ، فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، ثم قارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « لا رهبانية فى الاسلام » ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الأخير . وقالوا : شتان بين من غلب نفسه ، وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ، ولا يخفى بطلان هذه القضية، فانه لا تنافى بين الصلاح والزواج . على أن تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته إلا بخراب البيوت وتلاشى الأمم وانقراض النوع الإنسانى ، ولا يخفى أن هذا ينافى مقتضيات العمران ، ومطالب نظام الأكوان .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل ، فذانك موسى وداود عليهما السلام ، تزوجا كثيراً من النساء ، وهما ذانك الرسولان اللذان لايسع نصرانياً ولا يهوديا إنكار نبوتهما ، أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الأولى .

هذا ونذكر لك هنا فى زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ما فيه غناء إن شاء الله تعالى ، فنقول : إعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبى صلى الله عليه وسلم من الخصائص ، مالم يكن لغيره من أمته ، وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه ، ولايخفى أن مثل هذا لا يكفى لإقناع غير المسلمين ، الذين نددوا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يجدوا فى كتب المسلمين ما ينهض حجة لهـم ، اللهم إلا قليـلا ممن أيده الله

بروح منه ، فنريد أن نذكر لك من اسباب ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله .

فاعلم أن أول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة .

قضى النبي صلى الله عليه وسلم شبيبته ، وطائفة من كهولته ، ولا زوج له إلا خديجة ، ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات ، بعد أن مكثت مع النبي صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع أولاده ، ماعدا ابراهيم ، فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء ، وهو فى ريعان شبابه ، وقد كانت العرب ، على ما علمت ، يكثرون من الزوجات حتى أن منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد ، فلو كان هناك سلطان للهوى ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لاتخذ من الزوجات من شاء ، وهو فى مقتبل شبابه ، واستكمال قواه الطبيعية ، لا شرع يحول بينه وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه مراعتها ، من قضاء مآربه ، لا سيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس ، لما اشتهر من مكارم أخلاقه ، وجميل خصاله .

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر ، تزوج النبي صلى الله عليه وسلم سودة ، وكانت أيّماً مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة ، وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت بنى عمها وأقاربها ، فما اجمل ما عمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت ، فقد مات عنها زوجها ولا حامى لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنفسهم ، فكان تزوج النبي بها حماية لها أن تصل اليها يد الأذى ، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد زوجها .

مات أبوطالب لشهر من موت خديجة، ففقد النبي بموته رجلا كان يناضل عنه ، ويدفع عنه أعداءه ما استطاع ، فأخذ الأمر إذ ذاك يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش ، فعقد على عائشة ، وهى إذ ذاك بنت سبع ، فان أباها الصديق رضى الله عنه كان صدراً وجيهاً فى قريش ، واسع المال ، عزيز الجانب ، يدلك على ذلك مسارعة النبي صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها ، مع أنها قاصر وأنه لم يبن بها إلا بعد ذلك بنحو سنتين ، فلم تكن وقت ذاك مطمعاً لقضاء شىء من المآرب الشهوية، حتى يطمع اليها نظر النبي أو غيره .

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية . مات عنها زوجها هناك ، وما هو إلا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشى أنه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه إياها .

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بنى أمية من العداء ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألدّ بنى أمية عداوة لرسول الله وللمسلمين ، فانه لم يدخل فى الإسلام إلا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد ، فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب ، تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الأذى عنه ، كما أنه صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه ، لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها ، ففى عدم حمايتها ووقايتها، وقدمات زوجها . تعريض لها الى مقاساة المصاعب والأهوال ، وإنما اختارها النبي لنفسه لمكانتها فى قومها ، فلو أنها زوجت

بغير كفء لا تخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صـــدور بيوتاتهم ، ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم .

كانت الأسرى من النساء يتخذن أماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شىء ، على أنهن قلما أعتقن ، فأراد النبي أن يعلم المسلمين بالعمل ماينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وأن يجعلن سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما، فوقعت جويرية بنت الحرث ابن أبى ضرار فى سهم ثابت بن قيس، فجاءت الى الرسول فقالت : يارسول الله أنا جويرية بنت الحرث سيد قومه ، وقد أصابنى من الأمر ماقد علمت، وقد كاتبنى ثابت على تسع أواق، فأعنى على فكاكى، فقال : أوخير من ذلك ، فقالت: ماهو ؟ فقال: أؤدى عنك كتابتك و أتزوجك، فقالت: نعم يارسول الله فقال: قد فعلت، وخرج الخبر إلى الناس، فقالوا : أصهار رسول الله يسترقون، فأعتقوا ما كان فى أيديهم من سبى بنى المصطلق، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام إياها . فانظر إلى ماقصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها .

ومن ذلك أيضا تزوجه بصفية بنت حيي ، وكانت من أشرف بيوت اليهود ، ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر ، وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم .

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما دخلت صفية على النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله .

فقالت يارسول الله: إن الله يقول فى كتابه «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فقال لها رسول الله: اختارى فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحق بقومك. فقالت: يارسول الله، لقد هويت الاسلام، وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك ومالى فى اليهودية أرب، ومالى فيها والد ولا أخ، وخيرتنى الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب الىّ من العتق، وأن أرجع الى قومى، قال فأمسكها رسول الله لنفسه، وقد رضيته بعلا، مع أنه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق.

هذا واعلم أن أمر الثأر فى الجاهلية معروف، وقد حاول كثير من الأنبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء، ونسخ تلك العادة القبيحة، فلم يفلحوا، لما أن ذلك كان أمراً راسخا فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء، حتى أتى النبى فجعل من عقود أنكحته ما ربط كثيراً من القبائل بعضها إلى بعض، فبذا قرب ما بينها، وأزال كثيرا من أحقادها، وأطفأ سورة ما فى صدورها من الغل والضغائن، حتى قلَّت فى أيامه صلى الله عليه وسلم الغارات، وكاد يتناسى أمر الثارات.

هذا، وتتميما لهذا الموضوع نريد أن نذكر كلمة فى تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب امرأة مولاه زيد:

قال الاستاذ الحكيم (١) أن زينب كانت بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر، حتى أنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها وعد

(١) أنظر تفسير سورة الفاتحة

هذا عصيانا ، ولا زال كذلك حتى نزل فى شأنها آية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » .

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها لم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة ، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية ؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة الغريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العتق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره ، بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا ، فكيف نظن أو نتوهم أن النبى الذى يقول الله له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله فى ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

إن النبى لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لايخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة ، وتفسد به شؤون المعيشة ، فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل ، وهى لاترضاه مع مافى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبى يجد من نفسه أن هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم

إلهى، ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت ، واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الإبن ويجرون عليه وله جميع الأحكام التى يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب ، فأراد الله محو ذلك بالاسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » ثم قال: « أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » فبين الله أن ليس للتبنى إلا حق المولى والأخ فى الدين .

وكان من عادة المصطفى أن يبادر فى كثير من شرائعه إلى اقامتها بنفسه ، ليكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى تخف وزر العادة ، وتخلص العقول من ريب الشبهة . وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب ، إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل ، كما ألغى حكمها بالقول الفصل . فبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلن إباؤها الأول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها ، وذهبت تؤذى زوجها ، وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرقا ، وأصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها رق ، كما جرى عليه . فشكا ذلك إلى النبى غير مرة وهو يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » إلا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها النبى ليمزق من حجاب تلك العادة ، كما قال تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » وأكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وقد قالت العرب إذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه .

قال أبو بكر بن العربى : فأما قولهم إن النبى صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت فى قلبه فباطل ، فإنه كان معها فى كل وقت وموضع ، ولم يكن ثمة حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن ... اه ملخصاً

وهكذا كانت سنة النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع تزوجاته فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه ، وقد كان فتياً لم يكلف بشىء من أعباء الرسالة ، ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله، لولا أن جعله الله من الصابرين، هذا كله على فرض أن أنكحة النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما إذا كانت قبل ذلك كما حققه الأمير على فى كتابه «سر الإسلام» فلا حاجة إلى التماس شىء من تلك الأسباب . قال الأمير على : إن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ، ثم أن الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبى أن يتزوج على من عنده ، كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجاً أخريات فقال : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك » أى إلا من سبق لك التزوج بهن .

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان ، قالوا : لِمَ جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الأزواج ؟

فاعلم أن ذلك يفضى بداهة إلى اختلاط الأنساب ، فيقع اللبس فى نسبة النسل ، ولا يخفى أن ذلك يفضى إلى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية ، كالنفقة والإرث وغيرهما .

وهنا مسئلة أخرى وهى أنه لِمَ جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس ؟ وجوابها أن الإسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه، فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس ، فإن المسلمة فى يد الكتابى لا تأمن أن تفتتن فى دينها ، فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره ، لاسيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية فى العصر الحاضرى يرى جلياً وجه ماقلناه ، ومن هنا يعلم أن المرأة لم تبخس شيئاً مما منحه الرجل .

٩ - الطلاق

مما عدّ وصمة فى الإسلام إباحة الطلاق ، ولذا ينبغى لنا أن نأتى ببيان ما سيكشف لك إن شاء الله وجه الصواب فيه ، فنقول :

إعلم أن الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين، لأنه قد تدعو اليه الضرورة، أما حيث لاضرورة فسماه النبى صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال إلى الله ، كما أن المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال إنه نهى كراهة ، ومنهم من قال نهى تحريما وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلاسبب، ويؤيد ذلك أنه إضرار، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه فى قوله: لاضرر ولاضرار، ولقد كره النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب ،

مع أنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا ، أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا فى بيان الأسباب ، قال ابن عابدين : وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة ، والأباحة للحاجة إلى الخلاص ، فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص ، بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة واخلاص الإيذاء بها وبأهلها وأولادها ، ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق اه .

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا إلا للزنى ، كالأمة الانكليزية ، فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الأمر إلى المحكمة ليفصل القاضى بينهما . أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا أن هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لا فرقة عندهم إلا بقضاء قاض ، ولا بد لجميعهم أن يرجعوا الى ما قرره الإسلام من الأسباب .

نعم إن الشريعة الإسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل ، لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ، ولكن دين الإسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمى ، فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة ، ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير المقترف

وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى العالم ، لا سيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع ، وتنتقل من أرض إلى أخرى ومن يد الى غيرها ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض على المحاكم من هذه القضايا ، آتية على ماقل منها وما جل . فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل او امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقى من العمر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا ، اما الإسلام فانه جعل للقاضى فسخ الأنكحة فى أمور لا بأس فى اعلانها ، بل ان إعلانها هو المصلحة الكبرى ، من ذلك : الجب والعنة والجنون والبرص والجذام والإعسار بالنفقة والكسوة والمسكن ، مما تراه مبسوطا فى كتب الفقة متى رجعت إليها . أما غير هذه الأسباب مما قد يزول أولا كبير خطر فى بقائه ، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بياناً فيه . فما أجمل ستار الشرع الذى يخفى كثيراً من النقائص ، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد ، وما أرأفه بالإنسان الذى قد يهفو ثم يبدو له فينيب .

هذا . واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا ، وغاية ماورد فى الانجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان ، وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا .

واعلم أن الطلاق فى الإسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم) ولكن الإسلام مع ذلك قد جعل للمرأة ، كما تقدم، أن تشترط

فى العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية ، فإذا لم تشترط ذلك هى أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ، ولكن مع ذلك لا يجوز له أن يوقعه إلا حيث يراه الشرع حسناً صالحاً كما تقدم .

هذا ولم يعتبر الإسلام زنا الرجل من الأسباب التى تطلب بها المرأة فسخ الزواج ، ولا العكس ، إلا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها ، ولا بينة له ، فإن له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ، ثم يفرق القاضى بينهما ، والسبب فى أن هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الأولاد ، ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل إن لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه .

فمما تقدم لنا هنا نرى أن الإسلام لم يجر فى جميع ماسردناه عليك هنا إلا على مقتضى أصل الفطرة ، فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ، ثم لم يبخسهن شيئاً ، كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقروناً بما وضعه وقرره من الشروط ـ ولكن لو أنصف الناس لاستراح القاضى ــ حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم ، فكان أكثرهم إباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون .

كان الطلاق قبل الإسلام منتشراً فى جميع أمم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد اعتبر قانون « الموائد الأثنى عشرة » الطلاق جائزاً . أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم يعملوا بهذا

القانون إلا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم «رومة» فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق ، ولكن لأن الرجل فى تلك القرون كان له أن يقتـــل امرأته عقاباً لها على بعض الجرائم كالسكر ، فكانت عند الرجل كالرقيق ، كما أنها إذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها . نعم إن الرومانيين فى أخريات أمرهم أصلحوا كثيراً من شأن المرأة وأنصفوها ، إذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الأشياء .

يقول الأمير على إن المعتزلة لا يجوزون وقوع الطـــلاق إلا بحكم القاضى الشرعى العادل ، فلا بد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحاً . ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطـلاق بحكم القاضى ، فلا يصح عندهم وقوع الطـلاق من الزوج إلا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة .

واعلم أن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع إمرأته فى الطلقة الأولى والثانية ، لأنه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر ، فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأى ضعيف العزم ، ولا يخفى ما فى هذا الشرط من السر الحكيم ، وإذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما» أيقول الله إن يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم

إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ؟

وتفهم قوله تعالى: « خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة ، ولم يقل بغضاً وقسوة، وقوله تعالى: «أمسك عليك زوجك» أمر النبي عليه السلام زيداً بأن يمسك زوجته فلا يطلقها ، مع أنها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته، وقال تعالى: «فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أي فلا تطلقوهن، ومن هنا استنتج أن الأصل في الطلاق التحريم، إلا لسبب كما تقدم لنا .

١٠ - خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الأستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده ، مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام .

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباساً وزينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل في ولايته ، أو ماتعدى ضرره إلى غيره ، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حتماً محترما تصطدم به ، أنحى الإسلام على التقليد

وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم ، وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « نم فإن الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة »

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون .

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته و نفعه ،ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من

علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب.

عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدناه عليه آباءنا » « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »

رأى السيد جمال الدين الأفغاني

الأمة الاسلامية

« جاءت الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة، ومكنت فى نفوسها تلك الصفات الفاضلة، وشمل ذلك آحادهم، ورسخت بينهم تلك الأصول الثابتة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤوس الأمم من جبال الألب إلى جدار الصين فى قرن واحد، وحثوا تراب المذلة على رؤوس الأكاسرة والقياصرة. مع أنهم لم يكونوا إلا شرذمة قليلة العدد نزرة العُدد، ولم ينالوا هذه البسطة فى الملك، والسطوة فى السلطان إلا بما حازوا من العقائد الصحيحة، والصفات الكريمة. هذا إلى ما جذبه مغناطيس فضائلهم من مائة مليون دخلوا فى دينهم فى مدة قرن واحد من أمم مختلفة، مع أنهم كانوا يخيرونهم بين الإسلام، وشيء زهيد من الجزية، لا يثقل على النفوس أداؤه، هكذا كان حال هذه الأمة الشريفة من العزة ومنعة السلطان » الى أن قال :

فأفسدوا « أى الطبيعيون » أخلاق الملة الاسلامية شرقا وغربا، وزعزعوا أركان عقائدها، وساعدهم مد الزمان على تلويث النفوس بالأخلاق الرديئة، وتجريدها من السجايا الكاملة التى كان عليها أبناء هذه الملة الشريفة، حتى تبدّلت شجاعتهم بالجبن، وصلابتهم بالخور، وجرأتهم بالخوف، وصدقهم بالكذب، وأمانتهم بالخيانة، ووقع المسخ فى هممهم. فبعد أن كان مرماها مصالح الملة عامة، صارت مقصورة على المنافع الشخصية الخاصة، وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية. وكان من عاقبة ذلك أن جماعة من قزم الأفرنج صدعوا أطراف البلاد السورية، وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الأبرياء، وخربوا ما أمكنهم أن يخربوا، وثبتوا بها نحو مائتى سنة، والمسلمون فى عجز عن مدافعتهم

مع أن الأفرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين ، وطروء الفساد على أخلاقهم ، فى قلق لا يستقر لهم أمن على حياتهم وهم فى بلادهم ، خوفا من عادية المسلمين ، وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيز خان ، واخترقوا بلاد المسلمين ، وهدموا كثيراً من المدن المحمدية ، وأهدروا دماء ملايين من الناس ، ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم ، مع أن مجال خوفهم فى بدء الإسلام على قلة عددهم ، كان ينتهى الى أسوار الصين .

وما نزل بالمسلمين شىء من هذه المذلات والإهانات ، ولا رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء فى أرواحهم إلا بعد ما كانت بصائرهم ، ونغلت نياتهم ، ومازج الدغل قلوبهم ، وخربت أماناتهم ، وفشا الغل والادهان بينهم ، ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمته ، ولا ينظر إلى ملته ، فأصبحوا بقناة خوّارة ، بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز ، إلا أن بقية من تلك الأخلاق المحمدية كانت لم تزل راسخة فى نفوس كثير منهم ، كامنة فى طى ضمائرهم ، فهى التى أنهضتهم من كبوتهم وحملتهم على الجد فى كشف السطوة الغربية عن بلادهم ، فأجلوا الأمم الأفرنجية بعد مئين من السنين ، وخلصوا البلاد السورية من أيديهم ، وطوقوا الجنكيزيين بطوق الإسلام ، وألبسوهم تيجان شرفهم ، ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف وإعادة ما كان لهم من الشوكة إلى المقام الأول ، فإن ما كان من شوكة وقوة إنما هو أثر العقائد الحقة والصفات المحمودة ، فلما خالط الفساد هذه وتلك ، تعسر عود السهم الى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب ، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد الدهرية فى صورة الدين ، وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الاسلامى .

الشعب الفرنسى :

شعب كان قد تفرد بين الشعوب الأوربية بإحراز النصيب الأوفر من الأصول الستة ، فرفع منار العلم ، وجبر كسر الصناعة فى قطعة أوربا بعد الرومانيين ، وصار بذلك مشرقاً للتمدن فى سائر الممالك الغربية ، وبما أحرز الفرنساويون

من تلك الأصول كانت لهم الكلمة النافذة فى دول الغرب إلى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحى ، حتى ظهر فيهم « فولتير »و« روسو » يزعمان حماية العدل ، وأحياء ما بلى من عظام الناتوراليسم « الطبيعيين » ونبذا كل تكليف دينى ، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك ، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية ، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى ، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية ، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء « برأهم الله مما قالا » . وكثيراً ما ألف فولتير من الكتب فى تخطئه الأنبياء والسخرية بهم ،والقدح فى أنسابهم ، وعيب ماجاءوا به ، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين ، ونالت من عقولهم ، فنبذوا الديانة العيسوية ، ونفضوا منها أيديهم ،وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة فى زعمهم ، شريعة الطبيعة ، وزاد بهم الهوس فى بعض أيامهم ، حتى حمل لفيفاً من عامتهم على أن يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ، ويحملوها الى محراب الكنيسة ، ونادى زعيم القوم : « أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ، ولا التماع البرق ، ولا تظنوا شيئاً من ذلك تهديداً لكم من إله السماء ، يرسله عليكم ليعظكم به ، ويزعجكم عن مخالفته . كلا فهذه كلها آثار الطبيعة « الناتور » ولا مؤثر فى الوجود سواها ، فخلوا عن أعناقكم قيود الأوهام ، ولا تقيموا لأنفسكم إلهاً من خواطر ظنونكم . وإن كانت العبادة من رغائب شهواتكم ، فها هى العذراء قائمة فى المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها إن شئتم » .

والأضاليل التى بثها فولتير وروسو هى التى أضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة ، ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة ، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها ، فاختلفت فيها المشارب ، وتباينت المذاهب ، وأوغلوا فى سبل الخلاف زمناً يتبعه زمن ، حتى تبين صدعهم ، وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية ، وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة ، وانحصر سعى كل قبيل فى التماس ما يواتى لذته ، ويوافق شهوته ، وأعرضوا عن منافعهم العامة ، وأعقب ذلك طروء الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا « لعله يشير الى حالة فرنسا أيام وضعه هذا الكلام منذ نيف وأربعين عاما »

نعم إن نابليون الأول بذل جهده فى إعادة الديانة المسيحية إلى ذلك الشعب، استدراكا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل، فاستمر الاختلاف بالفرنساويين إلى الحد الذى هم عليه اليوم. هذا الذى جر الفرنساويين للسقوط فى عار الهزيمة بين يدى الجرمانيين، وجلب إليهم من الخسائر ما تعسر عليهم تعويضه فى سنين طويلة » ... اه

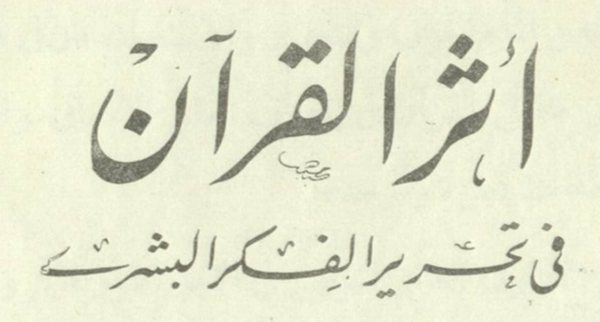
* * *

هذا لسان صدق من ألسنة المسلمين، ينطق على خصمائهم بالحق، ويعير غير المستمسكين بدينهم من المسيحيين، ويقول لهم إن نبذهم الدين إنما هو الذى عاد عليهم بالانهزام أمام أسياف بروسيا، وهو فى جداله إنما يجادل بالتى هى أحسن، معتمداً على قوة الحجة والبرهان. فأين هذا من عمل أولئك الحمقى الذين يعتمدون فى تأييد دينهم على السباب والشتائم، واللعنات الوقحة، حتى وهم قائمون يصلون فى الكنائس، كما أثبت الكونت دى كاسترى ذلك.

رأى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

ولم يكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وحده هو الذى تفرد بهذه المنزلة السامية فى جدله، بل إن نابغة الشرق ونبراس مصر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق، كان وهو فى أشد انفعال فى جداله مع وزير خارجية فرنسا، يتنكب الحط من دين خصمه، وإليك نبذة من قوله فى هذا المعنى:

« هذه هى العقيدة السامية، أو الدعوة المحمدية، أو المدنية الاسلامية، ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الأرض، ولم يتلطخوا بشىء من نعيم الحضر، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان، وصفاء العقل، مبلغاً مكنهم من التلطف بالأمم، حتى وقعوا على ما كان خفياً لديها، وكشفوا ما كان مستوراً عندها، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية » ... اه


أثر القرآن
في تحرير الفكر البشري

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل من المستحسن ـ قبل أن أتكلم فى أثر القرآن الكريم فى حركة الفكر البشرى وتحريره ـ أن ألم بنبذة تاريخية فيما كانت عليه الأمم الكبرى فى طائفةمن القرون التى سبقت ظهور الإسلام من التطورات ، وما تعاقب على العقول فيها من المدوالجزر ، والتحرير والاستعباد ، فان فى ذلك مايعيننا على إدراك مدى مافعل القرآن فى إنصاف العقل الإنسانى واحلاله المقام الذى خوله خالقه منذ فطره وأوجده .

كان أساس القانون العام السياسى فى الامبراطورية الرومانية إباحة علنية الأديان وجميع العقائد والأفكار وما زال الأمر هنالك كذلك حتى دخلت بأوربة الديانة المسيحية التى ابتدأ بها عهد الحجروالحظر على ماسيأتى تفصيله .

لقد كان من أهم الدعاة إلى تحرير الأفكار منقيود الخرافات والتقاليد ، والقصص المزعجة التى كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الأديان فيهم : « هراقليتوس »و« ديمقريط » ، ولقد تناول هذان بالبحث ـ بعد المادة الطبيعية ـ أحوال النفس البشرية والشئون السياسية ، وكان هدفهما ورائدهما فى جهودهما العنيفة إمتحان كل شىء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر

« انكساجوراس » فجعل يعلم الناس أن الشمس التى يصلون لها صباح مساء إنما هى كتلة من النار ملتهبة لا إله يعبـــد .

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة فى سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المسمون بالصوفية أو السفسطائية ، الذين أخذوا يظهرون فى القرن الخامس للميلاد، والذين وضعوا فى النصف الثانى من هذا القرن قواعد وأصولا للحياة الاجتماعية من ناحيتى « الأخلاق والسياسة » وبحثوا فى الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الأقلية المطلقة التى هى طبقة المفكرين والعلماء ، أما الدهماء والعامة فكانوا فى كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة ، على أنه لا ينبغى أن يسجل ما كان لأثينا فى ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة فى الشئون السياسية والخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة «بريكل» الذى كان يحمى أرباب التفكير الحر ، حتى لقد كان حصنا للفيلسوف الجاحد لآلهة أثينا « انكساجوراس » من المحاكمة .

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع إلى الخروج على الأديان كان آونة لا ينجو من العقوبة ، وإن ما كان ينشر من الكتب فى ذلك كان يجمع ويحرق أو يحرم بيعه علناً، ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التى كانت تقام فى أوجه المنطقيين « Rationalists » اللادينيين كادت فى أواخر ذلك القرن تختفى ، وذلك لوفرة عدد هؤلاء واطراد نموهم وتكاثرهم، ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الأغريق ، ثم الرومان حتى فى أرقى عصورهم علماً ومدنية ومادية أن الدين نافع وضرورى لعامة الشعوب مطلقاً ، ولذلك

كان يقول بفائدتها كركن للسياسة العامة ، حتى من لا يدينون بها ، كما أن فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر أية عقيدة أو نظرية ، من شأنها إحداث اضطراب ما فى الحياة الاجتماعية . ومن الأفراد البارزين فى هذا الميدان من الإغريق سقراط ، الذى يعتبر بحق أجل أولئك المربين ، فكان مما امتاز به وتفرد ، شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد ، واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون اليه ، الى طريق استعراض العقائد المعروفة المألوفة ، وامتحانها بمحك الفكر ، مع إفساح صدر العقل لكل بحث واحتمال ، دون تقيد بشىء من التقاليد ، ولا وقوف عند رغبات الجماهير ، وإنما سلك سقراط هذا الطريق فى نشره للعلم ، واقتياده شباب زمانه الى وجوه الحقيقة ، ومناهج التفكير الصحيح ، لأن بلاد اليونان منذ حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوى ، كانت ميدان حركة فكرية ، ابتدعها أفراد من اليونان ، كانوا فى أول هذه الحركة ، إما مسترزقين أو طلاب شهرة وسمعة ، ثم أخذوا يسرفون فى أساليبهم الجدلية وطرائقهم التشكيكية ، غير مبالين ماذا يصيب العقول من التضليل ، ولا حاسبين حساباً لوخيم عواقبها ، ومنكر نتائجها .

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود حتى التبس الأمر على العقول وخفيت عن بصائرها معالم العلم الصحيح وحدوده ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميدانا من ميادين المعرفة حتى أعملوا فى أساسها وأركانها معاول التشكيك لا للعلم ببلوغه ولا للصواب ينشدونه ولكن ضلالا وتضليلا ، وجهلا وتجهيلا ،

فلما جاء سقراط، بما أوتى من العقل الراجح والرأى السديد والعلم الصحيح، لم يجد بداً أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويسلك فى هدايتهم تلك السبل التى سلكها أولئك فى تشكيكهم وتضليلهم، ولو أنه انتهج فى تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التى فتنوا وأغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم إلى طريقه، أو يبلغ بهم شيئاً من مقاصده. وإلى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان.

ومع كون أثينا فى ذلك العصر كانت أشهر البلاد فى الديمقراطية وأكثرهن تسامحاً وحرية، نجد التاريخ يسجل لنا مالا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التى كانت تنال المتصدين للدعوة إلى حرية الفكر والاحتكام إلى العقل.

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية، وبالجدل والتشكيك، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس إذ ذاك من التقاليد والأفكار، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادى لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى بهم الى محاربة الفلاسفة (وفى مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل، لاسيما الروايات التى وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم، وتصوير مثل سقراط زنديقاً غير تقى وداعياً مضراً، حتى لقد ثارت عليه الأمة اليونانية آخر الأمر، فاعتبرته ملحداً ومفسداً لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد، لهذه الاسباب، كما يدل عليه ماجريات محاكمته، وما قدمه فى الدفاع عن نفسه، وقد علمنا من التاريخ أنه قدم لدرء ما آتهم به من افساده لعقائد الشباب هذين الدفعين:

(١) يجب على كل فرد مهما كانت النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه

مما يراه ظلماً ، سواء صدر عن شخص صاحب نفوذ أو عن محكمة .

(٢) أن لا ينزل مطلقاً عن القول بأن فى المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة ، وضماناً للعلم الصحيح .

بعد ذلك بسبعين عاما ، اضطر أرسطو أن يفارق أثينا أيضا ، حذر أن يساق الى ذلك المصير ، لاعتباره فيها ملحداً أيضا .

ولقد جاءنا أفلاطون ، أنجب تلاميذ سقراط ، فى آخر أيامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء ، فإنه يرينا فى (المدينة المثالية) أنه لا بد لأهل المدينة من قبول الدين الذى رسمه هو وصوره ، وأن من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن ، وأن حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذى وضعه . الخ ، على أن تعاليم سقراط فى محادثاته ظلت ينبوعاً غزير المادة ، ترعرعت به عدة مذاهب فى الفلسفة ، وصدر عن مرتواه جملة من الفلاسفة المعدودين ، كأفلاطون وأرسطو واستويقس وأمثالهم ، ممن انبثت مذاهبهم فى أطراف بلاد الإغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد ، وفتحوا لهذه البلاد مصاريع أبواب الحياة العقلية ، وأنعشوا فى أهليها حركة التفكير والتدبر .

ولقد سبقت لنا المامة بما ترك أفلاطون وأرسطو من الأثر فى تحرير عقول الآثنيين ، ولكن من المفيد أيضاً أن نورد هنا أن أبيقور على رغم جحوده قيام السلطان الالهى فى هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات قد تخطى بالعقول الخاملة فى إقدامه المدهش السريع من العقبات ما كان يستعصى على الأجيال والقرون . ولقد

وجد بعض الشعراء من الرومانيين فى فلسفته وحياًوإلهاماً مستطابا أودعه قصيدته المسماة (فى طبيعة الدنيا)

ولم تكن فلسفة استويقس فى تحرير العقل الانسانى بأقل حظاً من المذاهب المذكورة آنفاً ، بل الحقيقة أنها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية التى لم يأت سقراط على بيان شىء منها أيام كان يقرر أن القوانين قد تكون غير عـــدل وأن الناس يجرمون. ولقد كان لفلسفة استويقس أثرها فى الشرائع الرومانية ، فإن أساس القانون المدنى فى الامبراطورية الرومانية ، كان ، كما قدمنا سابقا ، إباحة علنية جميع الأديان والجهر بسائر الأفكار.

قدمنا لحضراتكم أن حرية الدين ، وحرية الجهر بالفكر ، لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية فى أوربا، فضربت هنالك من حولها نطاق الحجر والحظر ، لما كانت عليه من التقاليد الوثنية .

ابتدأ بها الحجر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية،التى تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية ، والتى ما كانت تتمثل لأبصارهم سهلة سمحة .

ولشدة نفور الرومانيين منها ، وبغضهم لها ، واعتقادهم ابتعادها عن روح التسامح ، أصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية ، وإن يكن أحاطه بقيود لم تيسر السبيل إلى الاسراف فى القتل ، ولكن الامبراطور ديوكلتيان أراد تأييد دين الحكومة ، وتثبيت قدم الحرية التى ألغوها قديما ، فكان ما قرره من تنظيم المذابح فى المسيحيين بكل فظاعة وقسوة . وفى الحق أن الذى دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم ، أن

المسيحية كانت تقبح ما اعتيد من عبادة الرومانيين لبراطرتهم ، على حين أن ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة ، توحيدا لكلمتهم ، وتعلقا خالصا بعروشهم التى تمثل الامبراطورية جميعها . ولكن بدخول قسطنطين الكبير فى النصرانية دارت الدائرة على العقل ، فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق . وبعد أن كان رجال المسيحية فى القرنين اللذين سبقاذلك ينادون بأن التسامح الدينى واجب، وأن العقائد ليست مما يلزم به الانسان جبراً ، فتنوا بدخول قسطنطين فى النصرانية ، وانقلب الأمر رأسا لعقب ، فكان الحكام والملوك ، لأسباب سياسية غالبا ، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلاقات المذهبية ، يوقدون نيران الفتن ، ويتيممون المذابح المريعة هنا وهناك ، حتى سلب من الدنيا الأمن والسلام ، وفقدت الأنفس الراحة ، والطمانينة . ولقد كان من تعاليمهم أن النجاة لا تكون إلا بقبول المسيحية،وأن من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا ، ولا عذاب الآخرة ، مهما بلغت فيه الفضائل ، ومهما قدّمت يده من الخيرات والحسنات ، وأنه إذا مات الطفل قبل التعميد فأنه فى الآخرة يمشى على بطنه فى أرض جهنم أبد الآباد .

ومن أقدس رجالهم (سانت أو غسطين) الذى مات سنة ٤٣٠ ميلادية ، فإنه وضع نظام اضطهاد من لا يقبل النصرانية ، واستمر ذلك من بعده متبعا الى القرن الثانى عشر ، وكلما حدثت بين النصارى بدعة أوعقيدة تقلل من دخل الكنيسة ، يشتد القسوس على أصحابها ويغلون فى ايذائهم والتنكيل بهم .

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث «قونت طولوز»، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية ،فلما لم يطع أمره أقام عليه حرباً صليبية كادت تفنى قومه، وفيها صودرت أملاك ذلك القونت ، وكسرت شوكته ،ولم يصالحه البابا إلا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه .

كذلك أقيم نظام التفتيش فى المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية ، وتم تنظيمه لعهد انوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل فى سائر المدن والممالك النصرانية، وعين لذلك المفتشون من القساوسة ، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شيء يفعلونه ،وساعدهم على ذلك ما وضعه البراطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة .

ومع كون فريدريك الثانى الكبير كان حر الفكر ، أصدر أمراً يقضى بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئاً فى النصرانية يعتبر خارجا ، ويحرق منهم من لم يتب، ويحبس من تاب، ومن ارتد قتل، وتصادر أملاك الجميع وتدمر بيوتهم ، وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمة ، لا هم ولا أنسالهم ، إلا إذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم . وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الإلحاد والابتداع ، وطبق ذلك الأمر فى ايطاليا والمانيا خلال ١٥ عاماً (١٢٢٠ — ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام التفتيش فى غرب أوربا . ولعهد هنرى الرابع والخامس عوقب الالحاد بالخازوق فى انكلترا بقانون اصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣ ، ثم أعيد لعهد الملكة مارى ، ونسخ نهائيا عام ١٦٧٦ م .

واستمرت فى تطبيقها على المسلمين واليهود ، بأفظع الطرق الوحشية ،

ولم تنسخ قانونيتها إلا فى القرن التاسع عشر ،وكانت خلال ذلك تطبق هذا القانون على من حملتهم على الردة من البيوتات الإسلامية واليهودية. وبالجملة فقد كانت القاعدة التى بنى عليها نظام التفتيش « خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة ، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ، ولا كان لمحكمة أن تقبل فى حال ما شاهد نفى .

وكما فعل بمخالفى العقيدة النصرانية ، كذلك فعل بطوائف السحرة ، فمن ذلك أن البابا « أنوسنت الثامن » نشر فى سنة ١٤٨٤ بلاغا يؤكد فيه أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة ، فتتبعوهم فى كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع ، وبالخاصة فى انجلترة واسكوتلاندة .

وفى أواخر القرن الثانى عشر جاء للعقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها ، إذ أخذت فلسفة أرسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها فى غرب أوروبا . ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير فى تحرير عقول أهل أوروبا ، كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم ، فاننا نجد البابا يوحنا الحادى عشر ، يقبح تعاليم إبن رشد ، ويحكم بضرر وجودها ونشرها ، كما أن القس توماس قسيس أكوينو بجنوب إيطاليا سنة ١٢٧٤ ، قام فأسس للكنيسة فلسفة أزاء فلسفة أرسطو والعرب ، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية . والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار ، بل إنها فى أغلب المواطن كانت تتركها كريشة فى مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق .

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية ، والنهضة العلمية ، دخلتا أوروبا فيما حول القرن الثانى عشر الميلادى من طريقين: «أحدهما» الاحتكاك الذى ظل نحو قرنين مستمراً بين أمم أوربا والشرق الإسلامى خلال الحروب الصليبية ، و « ثانيهما » طريق المعاهد العلمية التى أقامها العرب فى الأندلس ونابولى وجزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدىء بهم تاريخ النهضة العلمية فى أوربا كروجر بيكون وأمثاله كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التى كانت لا تنفك تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم فى كل فن. وإذا إنتحل هؤلاء أو عزى اليهم ابتكار أو ابتداع ، فانما سبب ذلك ما تعمدوه غالباً من إغفال المصادر التى أخذوا عنها ، حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الانجليزى الذى يعزو اليه الفرنجة فضل السبق فى العدسات والنظارات ، إنما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم ، صاحب المباحث العظيمة فى الطبيعيات ، لا سيما الضوء والبصريات. فمجاورة أهل أوربا لأهل القرآن ، الذى حرر العقول ، وأقام صروح العلوم ،وزين الدنيا بجميل الفنون ، هى التى فتقت بصائرهم ، وكشفت عن حديد أبصارهم أغشية الجهالة ، التى حجبتهم عن أنوار الهداية أدهاراً طويلة . ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الإنسانى موقف أهل القرآن من كل وجه، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذى اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الإسلامية ، ولكن كان لسلطان رجال الدين فى تلك العصور، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها، ما قاوم تقدمهما وأضعف تأثيرهما . فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم إلى المناحى الدينية ، وقصروها

على المباحث الكنسية ، وبذلك صرفوها عن وجوهها الأصلية ، وقصدوا بها إلى غير غاياتها الطبيعية .

ومع أن المرسوم الذى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩ م، قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات، وألا تفسر التوراة والأناجيل إلا بما تقرره الكنيسة، قد أغضب كثيراً من الأمم النصرانية . وبرغم أن هذا القرار فى الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروطسطنتى، فان لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث أن قرر أن للحكومة حق إجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة ، وأن لها استئصال الملحدين المنكرين لها .

بذلك الكيد المبيد للعقل الانسانى، والغدر الأثيم به، لم تقو الحركة الفكرية على المضى فى سبيل حريتها ، والظهور على ما كان يبيت لها رجال الدين من الحروب الشعواء ، حتى كانت أواخر القرن السادس عشر، حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الانجليزى بحملاته العنيفة ، على الفلسفة الدينية ، مصدعا بمعاولة صروحها الشامخة الرهيبة ، داعيا الناس إلى تحرير العقول ، ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التى وضعها ، واقتاد الباحثين اليها، فبدأ بذلك عهد التجديد العلمى ، والتحرير العقلى ، الذى لا تزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف .

يبتدىء تاريخ الفلك الجديد بأوربا ، كما هو معلوم، عام ١٥٤٣ م، ذلك حينما نشر كتاب كوبرنيقوس الذى يثبت به دورة الأرض حول الشمس، ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه إثبات أقمار المريخ، وإثبات دورة الأرض

حول نفسها ، مستدلا على ذلك باللمع المظلمة التى رآها فى جسم الشمس ، فبماذا قابلته الكنيسة ؟ لقد قرر المكتب المقدس فى فبراير سنة ١٦١٦ أن مذهب كوبرنيقوس سخيف ، وبمقارنته بما جاء فى الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة . ولقد حرمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية الى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر . وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية فى ايطاليا . وكذلك أقام البابا الكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠ ، كيلا تنشر ما لا ترضاه البابوية من الأفكار ، الحرة ولو كانت حقائق علمية ثابتة. وفى فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئا بدون ترخيص . والحقيقة أن الطبع لم يصر حراً فى أية قطعة من أوربة إلا فى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة ، وقويت شوكة الملوك والأمراء المدنية، وسادت النظم والقوانين الدستورية. ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية فى فرنسا (١٧٩٢ — ٥) أعيد وأيد القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية ، ولكن وجد بجانب ذلك حركة شـــديدة ضد الكنائس ، إذ أصدرت باريس أمرا باغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء ،مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية ، ولكن حينما جاء روبسبير فى رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة عبادة العلى الكبير (إبريل سنة ١٧٩٥) ، وبعد قليل أحدث دين وضعى جديد ، يسمى دين الفطر ، وهو دين فلاســـفة ذلك القرن ودين شعرائه ، مثل فولتير . وقواعده هى القول بالله ، وخلود النفس ، والأخوة والأنسانية (الرحمة)،وألا تهاجم هذه الديانة غيرها من الأديان

والمذاهب، ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله (Theophila Nthropy) ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأساً لعقب، وأظهر البابوية ثانية فى الميدان، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الانتفاع بالسلطة الروحانية، والاستفادة منها فى حروبه المستقبلة، وتوسيع امبراطوريته فى عالم الكثلكة.

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر، زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين، لما كان يذاع إذ ذاك من أن فى التوراة والأناجيل من التضارب والتنافر، ما لا تقوى العقول على قبوله. فتفشى بذلك إنكار الوحى، وسادت المناقشات العلمية هنا وهناك. وفى القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة، فاجتثت كثيرا من أصولها، وإن يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشىء، فمنهم من أنكرها بتاتاً واعتبرها غير معقولة وسخيفة، ومنهم من لم يصل الى هذا الحد الغشوم. فبسكال الفرنسى كان من المؤمنين بها، وبيكون الانجليزى كان يعلن اللاهوتية وإن يكن مضمراً للالحاد. وهناك ديسكارتس كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة.

ولقد نقتفى فى بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة، فى معاملة السحرة، فاننا بعد أن رأينا كيف كان جمس الاول عملا، بآية الانجيل «لا تبقوا على حياة السحرة» (Thaw shalt not suffer them to live) يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلاظة تشهد، فى أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف يعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالى هرتفوردشير مجرمة

تستحق عقوبة القتل ، فيرفض القاضى قولهم ويبرئها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ، ولا متقيد بالتقاليد السائدة إذ ذاك .

ولقد نسخ هذا القانون نسخا سنة ۱۷۳٥ ، ولكن فى سنة ۱۷٥۲ حكمت محاكم اسكوتلاندة باحراق امرأة ساحرة .

ومن المذاهب الجديرة بالذكر ، ما أحدثه فى هولندا فيلسوف يهودى اسمه (اشبينوتزا) وأعلنه الى الناس عند ماحل عقال الفكر ، وألقى حبله على غاربه . وعقيدته أن هناك إلها ليس قائما بذاته ، وأنه ليس للانسان ارادة حرة،وأن القول بالعلة الأولى أو علة العلل خرافة ، وبعبارة أخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود ، أو وحدة الوجود ، ولا بد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزاً إلى صاحب الفكر الحر ، فكانت عبارة مقت وتكفير إلا فيما ورد منها فى بعض الكتب الدقيقة ، ولكن الحقيقة أن الذين سموا إذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا إلا إلهيين ، بيد أنهم ينكرون فقط الوحى .

ومن معاصريه (لوك) ومغزى كتابه الذى وضعه سنة ۱٦۹۰ أن العلم جميعه ليس إلا نتيجة التجارب وأخضع الاعتقاد فى جميع أحواله للحكم العقلى،وقرر رفض ما يخالف حكم العقل من الوحى، وأن الوحى لا يعطى علماً صحيحاً كالذى يعطيه النظر العقلى ، وقد وضع كتاباً فى موافقة النصرانية للعقل . ولقد حذا هذا الحذو معاصره « بايل » الذى وضع بعد نفيه من فرنسا إلى هولندا كتابه (القاموس الفلسفى Phylosophical Dictionary)
ومن كلامه أن فضيلة الاعتقاد تنحصر فى الإيمان بقدرة الله وسلطانه

وحده ، ويقول إنه يستحيل أن يتصور الإلهيون تطبيق صفات إله الأرثوذكس على الإله الذى ثبت بالعقل وجوده . ولما قبل فريق من الأرثوذكس تحكيم العقل ضلوا ، وسقط منهم كثير فى هاوية الالحاد . وقد تطابق الالهيون (واشبينوتزا) على القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب .

ولقد ظلت أفكار الالهيين خفية مكتومة إلى سنة ١٦٨٥ م حين أبطلت قوانين المطبوعات ، فابتدأت إذ ذاك تظهر بعض الظهور ، برغم ما كان أمامها من العقبات الادارية الأخرى ، وهى :

(١) إنه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن فى المسيحية، أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها ، أو يأتى بإلحاد ، أو سب للمسيح .

(٢) ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضى القضاة هيل فى قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أى عمل أو قول أو رأى يخالف تعاليم الكنيسة ، يعتبر مخالفا للقانون العام ، إذ النصرانية رُكن من أركان القانون العام الانجليزى .

(٣) صدور قانون عام سنة ١٦٩٨ يقضى بأن كل نابت فى النصرانية لايجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها ، ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة فى الوظائف العمومية ، وفى الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة مع حبسه ثلاث سنوات

ولقد تولى فولتير ، وروسو، فى القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر . وللأخير يعزى كتاب « إميل » الذى أحرق علناً فى باريز وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه ، فما وسعه غير صدر فردريك

ملك بروسيا ، ولكن رجال الدين هنالك ما زالوا يضيقون الأرض عليه حتى اضطروه إلى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو أعظم تأثير فى الحياة الاجتماعية ، بعد الذى نشر من نظرياته الاشتراكية فى كتابه « العقد الاجتماعى » (Social contract) الذى أحرق علناً فى جنيف .

وفى سنة ١٧٧٠ فوجىء القراء الفرنسيون بالدهش يوم ظهر كتاب البارون دى هو لباخ « نظام الطبيعة » (System of nature) الذى أنكر فيه وجود الله وخلود الروح ، وقد انتشر فى القرن الثامن عشر الالحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم . على أن ذلك استمر إلى ما وراء هذا القرن ، فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩ ، وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل jage of Reason) . ثم جلبت امرأته وبنته وكثير من بائعى الكتب المحاكمة بسبب ذلك الكتاب .

وفى أواسط القرن الثامن عشر ، ابتدأت حركة الحرية الفكرية ، بعد إذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة ، وبعد أن رأينا كيف نفى أبو فردريق ملك بروسيا الفيلسوف ولف ، لمجرد أنه مدح ديانة كونفشيوس الصينية ، وما كان لأحد فى رأيه أن يمدح ديناً غير دين النصرانية . وبعد ذلك يجىء ابنه على إثره بالتسامح الذى جعل أرضه موئلا ومعاذاً لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الأخرى . ثم جاء شكسبير وغوتة بما قدما لعالم الأدب ، فخطوا بالعالم فى حرية الفكر خطواتهما الواسعة . وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) إذ بين فى كتابه (نقد العقل الصحيح Critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه

الكائنات، وبطلان الأدلة التى أقيمت على خلود الروح، وادعى ألا مصدر للعلم سوى التجارب ، وإن يكن فى آخر الأمر وضع كتاباً آخر روحه إلـٰهية ، وذلك حرصاً منه على الأخلاق فى الشعب التى هى ميزان الحياة الاجتماعية، والتى لا سبيل إلى إصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ صبغة روحانية ، وتسند إلى مصادر سماوية .

☼ ☼ ☼

مما تقدم يفهم أن مرجع العلوم العصرية فى البلاد الغربية ، والقرن السابع عشر، الذى شهد ثبوت نظرية كوبرنيقوس، والقوة المركزية الجاذبة، ونظام الدورة الدموية، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة، كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها . ولكن هذه المكتشفات ظلت إلى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة ، التى وردت فى كتب العهدين إلا بدرجة محدودة. بيد أنها مع ذلك قادت الأفكار إلى البحث فى الروايات التاريخية ، التى جاءت بها، كطوفان نوح وسفر التكوين . فلقد جاء لابلاس فى أوائله كما قدمنا. فقرر أن أبحاثه تفضى إلى رفض نظرية وجود الخالق، ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض فى الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان .

وفى عام ١٨٦٣ أوضح الأستاذ ليل الفرنسى (Lyell) فى كتابه قدم الإنسان : إن الإنسان سكن الأرض قبل العصر الذى عينته التوراة بأزمان مترامية فى القدم ، ولكنه رأى إمكان الجمع بينها باعتبار اليوم الذى جاء فى التوراة طويلا جدا ، لا كأيامنا المألوفة ، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن

تطبيقه على الأيام التى خلق فيها الإنسان ، فان التوراة تفيد أنها كانت كأيامنا

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زعزع أركان الأناجيل، ولكنها تركت باباً للقول بوجود النوع البشرى « قبل التاريخ » وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان ، مبينا أصل الإنسان ، فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء، وسائر النواميس الطبيعية، وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب داروين أصل الأجناس (Origin of species) عام ١٨٩٥ .

وازدادت الثورة الفكرية ، وتأججت نيران الجدل عند ما ظهر فى عام ١٨٧١ كتاب داروين منشأ الإنسان (The Descont of man) بين الدينيين وغير الدينيين، حتى لقد يؤثر عن غلادستون فى تلك الآونة قوله: « إذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتباره خالقاً قد انتهت ، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية ، وأنها قارة خالدة على حالة واحدة لأصبحت حكومة الرب فى العالم مما لا حاجة إليه ». وإذا أردنا أن نعرف مركز العقل ، ومدى حرية الفكر فى البلاد الغربية، غير الإسلامية، حتى فى أواسط القرن الأخير، فحسبي أن أقتبس لكم كيف صور المؤرخون بلاغا أذاعه أحد الكرادلة من الانجليز إذ يقولون :

فى سنة ١٨٦٤ أدهش الكردينال ما ننج الانجليزى عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه : « إن لكل إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحا ، وإنه ليس للكنيسة حق الاكراه على العقائد . وإن علم ماوراء الطبيعة يمكن بل يجب ألا يتقيد بالوحى ، ولا برغائب الكنيسة، وإن للكاثوليكيين حق

دعوة من يشاءون من مهاجرى الملل الأخرى ، وإن لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة ، وإنه يجب على البابا أن يقيم فى سلام مع الرقى العلمى والحرية والمدنية » .

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الأحداث الكبرى التى أدهشت عالم النصرانية. مع أنه عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الإسلامى ، وألفه منذ أشرق نور القرآن على القلوب ، وتجلت تعاليمه الفطرية على العالم الإنسانى ، تفرض التفكير ، وتقبح التقليد ، وترفع الحجر عن العقول .

☆ ☆ ☆

مما أسلفنا تعلم مبلغ ما كان بين الفكر البشرى ، وبين ملل الغرب، من الجدال العنيف، والصراع الدائم فى الأعصار العديدة، حتى كاد ينتهى النصر فى العاقبة للعقل ، ويكتب الغلب لحرية الفكر .

وإنما قلنا (كاد) لأننا لا نزال نرى فى بعض ممالك أوربا ، بل وفى أمريكا الجديدة ، أقواماً لا ينفكون ينصرون القديم ، ويفضّلون الجمود على ما كان عليه الأولون،ولو عارض المشهودات العينية ، وناقض الحجج المنطقية . وهل نسى أحد منا كيف عاملت فى العام الفارط إحدى جامعات أمريكا كبيراً من أساتذها ، لترويجه مذهب داروں ؛ يوم قامت من حوله ضجة وعجة ، لم يخفت لها صوت، حتى انتهت بفصله عن كرسّيه فى تلك الجامعة .

حسبنا تلك النبذة الموجزة ، لتصوير ما كان عليه العقل البشرى فى

الغرب ، من الأزمات التى احتمل مالا يوصف من آلامها وشرورها أدهارا طوالا فى سبيل حريته واستقلاله . فالآن فلألم إلمامة خفيفة بما كان عليه العقل فى الشرق الاقصى فى ذلك الوقت الذى انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الإغريق ، أى فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فأقول : بينما يقوم فى الشرق الأردنى اكسينوفانيس فيهاجم آلهة اليونان ممطرا إياها وابلا من التهكم والسخرية ، داعيا الناس إلى ترك عبادتها والزراية بسخافاتها ، وبينما كان هيركليتوس وديموقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من أسر التقليد الجاهلى ، واجتذابها الى حظيرة التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، نجد فى الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية ، تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجاهلة ، فى سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية : ففى الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفى الصين يحارب قونفشيوس ما كان فى قومه وحكام عصره من التفاوت فى الطبقات ، والنزوع الى الفوضى السياسية والاجتماعية ، ويهذب ما كان يرى فى أمراء زمنه من القسوة والغلظة والجور واستعباد الناس .

ومما يلاحظ هنا أن الشرقين ، وإن اتحدا أو تقاربا فى زمن نهوضهما ذلك ، فقد تشابها فى كنه تلك النهضة وطبيعتها ، إلا أنها كانت فى الهند أشد عناية بتهذيب النفس ، وتطهيرها من أدران الأخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشئون العامة المادية ، كما أن النهضة القنفوشيوسية فى الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية .

كما جاء رجال الدين فى الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العبادية ، والعقائد التى أرهقت العباد ، وأزهقت الأرواح ، واستعادت استعباد العقول ، وجعلت القرون الوسطى شر القرون وأشقاها ، كذلك فعل زملاؤهم فى الصين والهند وما حولها مثل ما فعلوا ، فكان من حكمة العليم الحكيم ، ورحمة الرفيق الرحيم ، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين فى ظلمات الضلالة ، الهائمين فى أودية الجهالة ، ليفك أغلال عقولهم ، ويرفع منزلة نفوسهم ، ويكلهم الى وحيه المنقذ لا إلى تجاريبهم العاثرة ، وأن يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التى فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعدل من أصحاب الملل والنحل الأخرى .

شاء جلت حكمته ذلك ، فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة ، ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة ، وينجى من معاثر الجهالة العقول الضالة .

سترون فيما أقص عليكم كيف سار القرآن الكريم بالفكر البشرى فى سبيل الحرية ، وأين حل بالعقل من المنازل العلية . بيد أنه يجمل أن ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من أنه إذا كان دين القرآن هو دين الفطرة ، وإذا كان مقياس صحة الأحكام فى نظر القرآن هو العقل والمنطق . فماذا عسى أن تكون فائدة الدين ؟ ولماذا لا يترك العقل البشرى يجاهد وحده فى سبيل الحق والحقائق ، حتى يبلغهما ، وينقب

عن الخير والشر والنافع والضار، حتى يفقه كنهها ، ويدرك حدودها ، ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات ؟

إلى أمثال هؤلاء نقول إن من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجاريب الى ما تصبو إليه النفس الإنسانية ، من مراتب الكمال فى الأحكام ، والتصورات والنظم الاجتماعية، والمسائل العلمية والآداب الخلقية ، ولكن فى سبيل ذلك عقبتان لا بد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الأمنية : إحداهما عادية والأخرى طبيعية .

فأما الأولى فهى : ضرورة انسلاخ عدة من القرون فى التجاريب والأبحاث التى يقتضيها الوصول الى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة .

وأما الثانيه: فهى ناموس النشوء والارتقاء ، أو التطور التدرجى الذى بالاعتماد عليه وحده فى عالم المعقولات والمعنويات ، لا يمكن أن يصل العقل البشرى إلى مرحلة ، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل .

على أن ثمة عوامل أخرى تكتنف سير العقل فى أحكامه وأبحاثه ، وكثيراً ما تقوم منها العواثير التى قلماينجو معها من السقوط والزلل . وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية ، والاضطرابات العصبية ، التى لا يجهل أحد منا آثارها فى شعب الحياة الاجتماعيةوالعقليةوالأدبية . ومن المغالطة أن نبرىء أنفسنا أو ندعى بلوغ الكمال فى شىء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنا ، مادمنا نجمع بين جنوبنا نفوساً أمارة ، إلى قلوب متقلبة ، إلى شهوات مطاعة ، إلى هوى متبع .

فالدين فيما أراد منزله جل شأنه ضروري لأصحاب تلك الأهواء المتقلبة والنفوس الجامحة.

لذلك، وللسلوك بالناس أقصر طريق وأقومه وأسلمه، يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن تزل أقدامهم، وتضل أحلامهم، وتفتنهم أهواؤهم، وتضيع مئات السنين أو آلافها في البحث عما تصبو إليه نفوسهم من العلم والحرية والمساواة والعدل، وسائر الفضائل والكمالات.

☆ ☆ ☆

جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء، فطابقت قواعد أحكامه وأصول آدابه وشرائعه، مقتضيات الفطرة البشرية، حتى لقد كان من أمهات أصوله فيما هو خاضع لتأثير المؤثرات، وعرضة لتعاقب التطورات، أن يكون العرف في كل أمة مقياس تقديرها، ومن هنا كان لا بد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الأزمنة والأمكنة والعرف الخاص في الشعوب والأقوام المختلفة، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل، غير متنكر لما فطرت عليه طبيعته، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره في الحياة الاجتماعية بجميع شعبها.

☆ ☆ ☆

عرف القرآن أن الإنسان مفطور، منذ بدأ إحساسه وشعوره، على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الاحداث والكائنات، فزاد تلك الغريزة تنشيطاً وإنعاشاً، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات،

المحصورين فى مضايق التقليد ، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة إلى تدبر وتفكير . ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم ، أو برهان يحاكمه به اليه .

* * *

لم يكن من منافرات العقل أن يأتى القرآن فيدعو الناس إلى الايمان بالرسل والأنبياء ، والأخذ بما كلفوا تبليغه من الأحكام والشرائع والآداب والفضائل ، فان ذلك المتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته . ذلك أن العقل مفطور على الشعور بالحاجة إلى مايدفع عادية الأفراد والجماعات بعضهم على بعض « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. الخ » كذلك هو مسوق بغريزته إلى أن يضع أو يتقبل كل مايرى فيه ضمانا لنظام الحياة الاجتماعية فى العالم الانسانى ، وبما أن عقل الإنسان معروض للإفلاس والزلل فى معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية ، على ما بسطناه فى محاضرة أخرى ، كان بطبيعة الحال ميالا إلى الطمأنينة ، والسكون إلى من يثق به ، وإلى قبول مايكفيه عناء البحث والتنقيب ، ويقيه مخاطر المغامرات التى تستلزمها الظنون والتجاريب ، شاخصاً إلى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطباع ، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته ، وان حرص الإنسان بفطرته على التماس أقصى الطرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ، ليدفعه الى طلب القدرة التى تسكن اليها نفسه ، وتقبل ما يصدر عنها من الأقوال الحكيمة ، والنصائح القويمة ، وهذا هو سر اندفاع العامة ، بل وأكثر الخاصة ، الى الاعتقاد فى أفراد من الناس يرجون

أن يبلغوا بهم منازل الكمال ، ويعيشوا بهديهم فى سعادة وسلام من الأنبياء والرسل ، وممن على قدمهم من الدعاة . وإنما طبع الانسان على ذلك لأنه يكره أن يتدرج فى تعرف الفضائل وطلابها ، تدرجا قد لا يدرك فى غضونه صواب أمره أو لا يضمن سلامة سبيله ، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الأعمال والتصرفات والأحكام يميل بفطرته إلى الإصاخة والاستماع إلى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعونه إليه ضالته المنشودة التى يصبو اليها ، وقلما عرف لها اذا ترك هو وشأنه سبيلا .

فالإنسان بفطرته السليمة وعقله الحر ، مدفوع الى الطمأنينة ، والاعتقاد فيمن يسلك به سبل السلامة ، من الخطأ والخطل والزلل ، حذر أن يفوّت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب ، وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب عليها الناس من جميع الطبقات ، ومختلف الأسنان فى سائر الأزمان .

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرع بها ، فهو إذا تحاكم فإلى العقل ، وإذا حاجّ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطلى العقل ، وإذا رضى فعن أولى العقل .

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل ، والماديين والدهريين ، فما قارعهم إلا بالبرهان ، ولا دعاهم إلا الى البحث والنظر ... من ذلك آية « لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . وكم من

آية قرع فيها أولئك الضالين لألغائهم عقولهم أو لاحتباسهم إياها على ما وجدوا عليه أباءهم، ولو جيئوا بأهدى منه كما فى آية « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

ومن الآيات التى هزمت أشياع التقليد ، المعطلين لعقولهم فى كل زمان ومكان شر هزيمة، قوله تعالى فى الآيات «ولا تقف ماليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » و « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » و « ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .

ولا تكاد تمر بك آية فى المجادلات إلا وهى مختومة بمثل « بل أكثرهم لا يعلمون » « قليلا ما تذكرون » « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» « أنىَّ يؤفكون » « لو تشعرون » « أفلا يسمعون » « إنما يتذكر أولو الألباب » وهلم جرًّا .

وقف القرآن الكريم فى جميع مقاماته ، لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذى جاء به ، فإذا دعا إلى عقيدة ، أو ركن من أركان الدين ، تجافى عن الالزامات التى لا تحبط بها العقول ولا تدركها الافهام . وكلما همَّ بتلقين أصل من أصوله ، بدأ بالمقدمات النظرية،ثم ينتهى بالتحذير من جحودها عنادا وكفرا وذلك كما يقول فى آية « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينه » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة »

ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته ، وهو خالق الإنسان ومالك

القلوب والأسماع والأبصار ، لم يكن فى شىء مما أوحى من آياته إلا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التى منها العدل والحق والخبير ، فهو الذى لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين، ولكن مبشرين ومنذرين « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » « فهل على الرسول إلا البلاغ المبين » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادلوا الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق» «ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

إن أول مابدأ به القرآن فى التحاكم الى العقل الإيمان بوجود الله ، فان القرآن ، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين ، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال، حتى أن منهم من لم يقبل الإيمان التقليدى بالله وإن أفتى الغزالى وأمثاله بقبول الايمان التقليدى من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر إما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه،فاكتفوا من هؤلاء بالايمان الثابت رحمة بهم ، ووقوفا معهم عند مدى موسوعاتهم ، وإن كان تقليديا لم يُقم على شىء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظرى .

فأما دعوة القرآن الكريم الناس الى البحث والنظر والتحاكم معهم إلى التفكير والعقل ، فانه لا يكاد يخلو منها سورة من السور ، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا المقام ، فلنجتزىء هنا باقتباس شىء من هـــذا فيما يلى من الآيات :

١ — « وهو الذى مد الأرض وجعـــل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل

الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .
وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى
ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

٢ — « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما الله أنزل من السماء من ماء
فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح
والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

٣ — « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ،
وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ،

٤ — « وفى انفسكم أفلا تبصرون » .

٥ — « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

٦ — « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله
من شىء » .

لا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك فى القرآن الكريم ،
فلنكتف بما اقتبسناه هنا ، منتقلين الى البحث فى مسألة تخبط فيها كثير
من الباحثين . تلك هى : ما مصير من لم يقصر فى النظر والبحث ، ولكنه
مع ذلك لم يستطع الوصول الى العقيدة الحقة فى الدين ؟

للعلماء فى هذا المقام آراء مبسوطة فى الكتب المختصة بها ، ولا يعنينى
هنا إلا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه ، فأستفتيها فى حكم ذلك

الشريق من الناس ، إلا أننى قبل ذلك أسترعى أسماعكم الى المسلمات الأولية التالية :

(١) أنه ليس فى استطاعة العقل البشرى ، إذا قام له الدليل الصحيح على حكم أن يرتاب فيه .

(٢) أنه ليس فى مقدور العقل البشرى أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معاً .

(٣) إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة ، كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب عليه سواه .

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية ، وجاء كتابه السماوى مصدقاً لها ، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ، ولكنهم إن اختلفوا بعض الشىء فيما عنّ لهم من الآراء ، تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ، ما ظاهره يخالف العقل .

وهل هذا إلا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ، ونزول على حكم الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والإرغام ؟ أم هل كان لدين الفطرة ، دين البحث والنظر ، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن إدراكها ، أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات ، حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين ، الذى قوّض دعائم الأيمان بغير المعقولات ، وأقام على أنقاضها عقيدة الإيمان اليقينى المتحصل من طريق العقل والنظر ؟

إن الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم ، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدهم إلى حجته وبرهانه . يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى : « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

إذاً فلنعد الآن إلى سرد بعض آى القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلى :

١ — « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » .

٢ — « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

٣ — « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .

٤ — « إن عليك إلا البلاغ » .

٥ — « إنما أنت نذير » .

* * *

وخلاصة القول أن القرآن ، الذى هو كتاب دين الفطرة ، ما كان ليأتى بما ينافى الآراء القويمة ، أو تغم حكمته على العقول السليمة ، ولم يكن ليكلف العقل الأيمان بما لا يعقل ، أو يحمّل الجسم ما لا طاقة له به ، أو أن يفترض على الإنسان ما ليس من موسوعات فطرته . إذاً فوظيفته فى البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التى يغشاها طلاب الحق والحقيقة ، لا من طريق الوحى بل من طرائق

التجارب، ومصارعة شياطين الإنس من الحكام الجائرين، وعصابات رجال الدين المضللين . ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشواهد ، لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية إزاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار ، وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية ، أو أبيحت حرية التفكير والنشر ، وتقررت بينهم حقوق الإنسان ، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء ، وأزهق فى سبيلها من الأرواح . سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها ، وما أصاب الأمم من شرورها ونكباتها .

موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات

لست هنا فى مقام المتعرض للبحث فى أمر وجوب المعجزات وخوارق العادات إثباتاً أو نفياً ، ولا أنا فى مقام المعرف بكنهها المحصى لأنواعها وأقسامها ، فان شيئاً من ذلك ليس مما نقصد إليه هنا، ولكن الغرض الذى نرمى إليه فى بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رأته الأديان الأخرى من اعتبارها أسساً للعقائد الدينية ، وآيات قاطعة تكفى أن يعتمد عليها الرسل والأنبياء فى إفحام المتحدّين لهم من الأمم التى يرسلون اليها ؟ أم هل يرى فى طبيعتها وقوة حجتها — مع دعوته إلى التعقل وحضّه على النظر والتدبر — مايخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج ؟

فلا يلتبسن الأمر على حضراتكم ولا يغيبن عن أبصاركم هذا المقصد .

امتاز الإسلام من بين الأديان ، كما أسلفنا غير مرة ، بأنه دين الفطرة والعقل ، كما امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسول الفطرى الذى أرسل بالحق والهدى بشيراً ونذيرا . فميزان صحة هـذا الشرع المنيف ، وقسطاسه المستقيم ، هو أن جميع ما جاء به من الأحكام والمراسم ،وضروب المواعظ والإرشاد ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . إذاً فما كان له أن يتأيد بما ليس من حـدوده ، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

كذلك جاء القرآن الـكريم بهذا الدين ، دين العلم والحكمة ، دين البيان والبرهان ، ولـكن الأقوام الذين أنزل فيهم كانوا أهل جهالة وعناد ، وعباد أهواء وشهوات ، جهلوا سر الإسلام وروحه ، فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الأولون من طـلاب المعجزات والخوارق . ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجماً عن تروّ وصـدق رأى ، ولـكنهم كانوا يقترحونها إما عبثاً أو عناداً ، أو التزاماً لما أرضعتهم الجاهلية الأولى من الضلالات والأباطيل، وفقدان العلم، «وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون . إنا أرسلناك بالحق بشـيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » .

ظل النبي عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم إلى

العمل بمقتضيات الفطرة ، ويرشدهم إلى كنه وظيفته النبوية ، وما هى سوى الهداية إلى السبيل القويم ، وإرشاد الناس قاطبة إلى مافيه الخير والسلامة فى معاشهم ومعادهم « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلى . قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الأولون بعد إذ ألحوا فى طلابها ، وأجيبوا اليها، فرأتها أبصارهم رأى العين . ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طلابها واللجاج فى استنزالها ،فمنهم من يراها من أنواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغياً وعدواناً « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى ، لما أصروا على طلاب ماقد طلبه أسلافهم ملحفين ، ثم تولوا عنه بعد إذ جاءهم مدبرين مكذبين . ولكن كان ذلك منهم جهل عناد وإعنات ، ولهذا لم تفدهم هدايات القرآن الكريم ، ولم تزدهم بيناته إلا عتوا واستكبارا « وقالوا لن

نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » ، « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

يقص علينا القرآن فى غير موضع أنه طالما كذب المشركون وأهل الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمعنوا فى اعناته وايذائه ، ولجوا فى زعمهم أنه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها . كما يقص علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التى لايفر المعاند من الخنوع لها لأمدّ الله بها رسوله ، ولأيّده بما لا يحيط به من الحصر من ضروبها . ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرتها أنفسهم بغياً وعلوًّا . ولهذه يبين لنا فى صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التى لاتنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هى القرآن الكريم نفسه « أولم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سئل معجزة من المعجزات إلا تلطف بطلابها وأرشدهم فيها الى الأخذ بأسباب العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون . ولا ترى فى القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جارى أولئك الحمق فى سبيل

مطالبهم ، وجاءهم بشىء من المعجزات التى سألوها، وقد جاء هذا صريحا فى قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » قال ابن جرير الطـــبرى فى تفسيره لهذه الآية « يقول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا مثل سؤآلهم ، فلما أتاهم ماسألوا منه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجىء الآيات فعوجلوا، فلم نرسل الى قومك بالآيات لأنا لو أرسلنا بها اليهم فكذبوا بها سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم »

وما كان مبعث الاضراب عن إجابة مطالبهم والحافهم فى سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شىء من ظواهره الكونية العادية. ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الأولين ، لجاج فى الطلب ، وجنوح عن التصديق ، وجهل بمكانة دين الفطرة ، وضلال عن ركنه المتين ، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم «وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه !! قل إن الله قادر أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية إقناعية، لما أمعن المعاندون فى تأويلها تارة وإنكارها أخرى ، وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » إلا لبيان هذه الحقيقة . ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى . فمنها ما يظهر على أيدى المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله ، ومنها ما يظهر على أيدى غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها

ما يظهر على أيدى أرباب الرياضات الروحانية ، حتى من المجوس والمشتركين .

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التى يراد منها إقناع المدعوين الى صحة الرسالة، وإثبات أن الرسل صادقون فى دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه فى تبليغ أحكامه وآدابه ، ولا يكفى فى التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التى تظهر على أيدى غير الأنبياء أنهم مبعوثون من قبل الله الى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد إذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلهم، فتارة يقولون هى سحر مبين، وأخرى ينكرونها معاندين .

فالاسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الأخرى بأنه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات،وما وراء العقل من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا » .

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم أوهامهم ووساوسهم، وتعطلت فى حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم ، فسبحوا فى لجج من الوهم،وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم،ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، وأن معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوى ، وضمان ذلك لسعادة الإنسان فى حياتيه الدنيا والأخرى .

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حداً كان يكبر عليه فيه إعراضهم عن دعوته، وإصرارهم على مخالفته، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلا مراء مسئول عنهم، وحامل لأوزارهم. فأنزل الله فى تسليته وإراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله: «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم». «إن عليك إلا البلاغ». «إنما أنت نذير».

ولكم شق على المصطفى صلى الله عليه وسلم انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات، فكانت نفسه الشريفة تطمع آونة فى أن ينزل الله شيئاً من آياته مجاراة لأولئك الضالين المعاندين، ولكن الله الذى أدب رسوله وأكمل عقله أراه فى آية: «وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجعلهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين». أراه فى هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين، وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الإنسان.

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام، بعد إذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره بما كانوا يعرضون، وأن يحزنه الذى يقولون، أو مصيرهم الذى يوعدون، فإنهم ما كانوا يكذبونه، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. فما عليه إذاً من حسابهم من شىء، بعد إذ قام بما حمله من التبليغ المبين: «وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب».

وهنا مبحث يجب أن نعجل الإلمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون

ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه فى الدين، وأن الرسول غير مكلف بشىء سوى التبليغ المبين، والتذكير بآيات الذكر الحكيم «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر». وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم فى قومه مقام الجبارين، فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد إعراضهم عن دينه بعد آية: «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد».

فالإسلام الذى هو دين الفطرة، ومجموع الكمالات القدسية، والآداب الإلهية، ليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة، ويروج فى العالم بالسيوف والنيران.

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، فمنها البرهان العقلى، والخطابة والشعر والتقليد، ولكل من هذه الأنواع تأثير فى نفوس الناس، بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل، وإنما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بمحض التقليد والاقتداء، ولو كانت غير معقولة، ومنافرة للعقل السليم، وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث، وقولهم إن عيسى صلب ليفتدى أتباعه بدمه، وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبى البشر، وهكذا من العقائد الغير البينة.

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية إلى

عقيدته على جهله ، وعدم تحصيله وقصور عقله ، وما هى سوى قول تلقفه ممن يثق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم .

وبالجملة ما كان للعقائد أن تتكون بالإرغام والقهر ، ولا للإسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن دركه ، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صـــدها ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية إذا أبوا الاسلام يدفعونها فى سبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم، فهم إذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم . وما خولف هذا الحكم فى أرض جزيرة العرب إلا لمقصد قد أتى على بيانه بيانا شافيا فيما يلى .

وحسبنا فى ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أرى إلا مسلما » وقد أجلاهم سيدنا عمر فى خلافته، وأجل لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة أيام . أما المشركين وأهل الكتاب فى غير أرض الجزيرة فقد علمنا أحكامهم ، أما أهل الردة الذين دانوا الله ، والتزموا الاسلام ، ثم ارتدوا عنه - إما الى غيره من الأديان وإما لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شىء من أصوله ، ويسمى الفقهاء جميع هؤلاء المرتدين ويفتون فيهم بالقتل ، أما بعد الاستتابة أو

دونها على خلاف لهم فى ذلك ـ أما هؤلاء فإن علينا ان نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول :

إن ذكر الردة جاءنا فى موضعين من القرآن الكريم ، ففى سورة البقرة جاءت آية : «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وفى سورة المائدة جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وظاهر أن هاتين الآيتين لاتدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين ، وكل ما دلت عليه آية البقرة ـ المذكورة آنفاً ـ أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى ، ومعنى الردة هنا ـ على مايظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة ـ أن معناها الارتداد عن الدين ، أى الكف عن الجهاد فى سبيله ، والارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول وأتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفاراً بعد إذ آمنوا .

يدلك على هذا التأويل ماجاء قبل ذلك من الآيات . قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به

والمسجد الحرام . واخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت فى قوم من المسلمين كانوا يهمون بالكف عن القتال ، ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم ، وأن يبذلوا مهجهم وأرواحهم فى نصرته وتأييده ، بغضا للقتال ، وضنا بالأرواح ، وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء اخلادهم الى العدو وإعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العدو ويتعبدهم ، وأن الموت الذى يفرون منه لا ريب ملاقيهم ، الى ذلك يشير قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم »

ولو أن أولئك النفر أدركوا بسهولة،ماوراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البالغة ، والمنافع العظيمة ، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال فى سبيل الله خلال الأشهر الحرم ، ولكن وهنت قلوبهم ، وتمكن حب الحياة من نفوسهم،وقصرت أبصارهم عن درك ماوراء ذلك من الذل الخالد والمسكنة الأبدية ، واستهانوا بأمر الفتنة فى الدين ، فجنحوا إلى التسليم ، وإغماد السيوف ، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خلال الشهر الحرام، كأنهم يريدون بذلك أن يجد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الأعداء ، وحماية دين الله من الأذى والمكر السيء

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح إلى النزول على حكم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب، جاء فى استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعدذلك : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت

وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ».

ذلك حكم الله فى المسلمين ، إذا مافتنوا عن دينهم ، وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم ، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه فى سبيل حماية دينه وملته « إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون ».

فالردة فى هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الإسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ، ولكنها ردتهم عن نصرة الإسلام ، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية ذماره ، بينا أعداؤه لا يفتأون يناوئونه ويكيدون له ، ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه .

وهذه الآية وإن لم تنص على قتل أولئك المرتدين ، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفته أبو بكر وعمر من بعده ، وكيف نكلوا بهم إذ كفوا عن الدفاع عنه ، ثم انقلبوا خوارج عليه ، يحاربونه ويقتلون أهله تأييداً المشركين من أقوامهم وتوهينا لبنيانه ، بعد إذ ظهروا على عورات المسلمين ، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشاف : أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الإسلام ، ثلاث فى زمن الرسول عليه السلام ، وسبع فى خلافة أبى بكر ، وواحدة فى عهد عمر ، وقد كفى الله الإسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه وتنقيض أركانه .

ذلك قولنا فى آية البقرة . أما آية المائدة فإن المتدبر للآيات السابقة لها فى القرآن الكريم ، يتبين أنها لا تكاد تخرج عن المعنى الذى نزلت فيه آية البقرة .

ذلك أن قوما من منافقي المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم، فجعلوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب، هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يداً عندهم، حتى اذا كان ما حسبوا وخشوا، سلموا من بطشهم وأذاهم. وفي هؤلاء نزلت الآيات: «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا في أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين».

إتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين، ليكونوا لهم شفعاء إذا كان ما خشوا وحسبوا، وأسرعوا خفية إلى الاندماج في سلك أهل الكتاب لتوقعهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبي عليه الصلاة والسلام وأشياعه، فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى. ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين «بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيء الذي بيته أولئك المنافقون، ومن تخلفهم وارتدادهم، وتوليهم عمدا عن نصرة دين الاسلام ومناصرة أهله، ما قد كان يمحو آثار التوحيد، ويرفع منار الشرك في الأرض.

فالارتداد في آية المائدة - كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها -

إنما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصرة الإسلام ، والتخلف عن درء الأذى عن اخوانهم المسلمين ، تاركيهم لغارات أعدائهم، بعد إذ اتخذوا لدى هؤلاء من الأيادى مازعموا أنه وقاية لأسبابهم وعصمة لدمائهم اذا ماكتب لهم الغلب والظفر بالمسلمين

ومن الآيات التى جاءت فى هذا الموضوع ، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »

أى ما شأنكم أيها المؤمنون فى أهل النفاق فئتين (١) والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك المحاربين فى إباحة دمائهم

نزلت هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب فى واقعة أحد ، وانصرفوا إلى المدينة قائلين « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » وهذا التأويل يلحق

---

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ إلى ١١٨ مع بعض تصرف

هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية فى كل زمان ومكان ودولة دماءهم . على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما: (١) من يصلون إلى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد . و(٢) من جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل إلى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة أقوامهم ، فلم يجعل الله بذلك سبيلا للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونسائهم .

وقال آخرون : بل كان اختلاف المؤمنين فى قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .

فأصحاب هذا التأويل على ماوصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت فى منافقين غير مسالمين ولكنهم خونة غدارون

والقول السديد الذى ارتضاه الطبرى فى تفسيره ، وهو الذى أراه ، أنها نزلت فى قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد إسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى: «فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا» فان الهجرة لم تكن فرضاً على أهل المدينة ومع ذلك فهى مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين فى قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ... فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

ومن هنا يتبين أنه لاعلاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الاسلام لمجرد شبهة لم يستطع ردها ، وفكرة عجز صاحبها عن دفعها

وكذلك يكون القول فى الآيات الكريمة : (١) «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»

على أن الطبرى وغيره يقولون بأن هذه الآيات فيما تختص بمشركى جزيرة العرب قد نسخت هى وما قبلها بآية «فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» وكذلك بآية «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر» إذ جعل الله لهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض ، أى أرض الجزيرة ، وأبطل ما كان قبل ذلك من أحكام بالنسبة لهم

ذلك ما جاء فى القرآن الكريم ، فلننتقل بكم إلى ما ورد فى السنة فى هذا الباب ، فنقول :

إن الأحاديث التى وردت فى هذا الباب كثيرة ، وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين ، وعلى بن أبى طالب ، وابن عباس رضى الله عنهم . أما ما عزى إلى الرسول عليه السلام فى ذلك وصح سنده ، فقليل جداً ، ومنه أن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل المرتدين المحاربين .

روى فى ذلك البخارى حديث النفر من عكل ، إذ قدموا على الرسول عليه السلام ، فأسلموا فاجتووا المدينة ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة

---

(١) سورة الممتحنة .

فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل ، فبعث فى آثارهم ، فأتى بهم فقطع ايديهم وأرجلهم وسمل اعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا

وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد .

ولا مراء أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن ، ولكن ذلك النفر من عكل، فضلا عن ردتهم، كانوا من أولئك الخائنين المحاربين، الذين يسعون فى الأرض فساداً ، المنطبق عليهم آية : « إنمـــا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »

فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة لهم أوهنت فيهم عقيدة الإسلام، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الأوثان ، ولكن لما رأينا من إرتدادهم إلى محاربة المسلمين وإيذائهم ومحاولة اللحاق بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم ، فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد فى الأرض تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروى آنفا عن البخارى فى شأنهم .

أما غير المحاربين من المرتدين ، فللعلمـــاء كلام طويل فى جزائهم ، فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة ، عملا بعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) . وخصه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهى الرسول عن قتل الأناث . وأما جميع ما ورد من الأحاديث فى قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة. بل لقد قال ابن الطلاع فى الأحكام (١) إنه لم ينقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة .

---

(١) فتح البارى — جزء ٢١ صفحة ٦٣٦

وجمهور الفقهاء ، وإن قالوا بقتل المرتد ، اختلفوا فى أمر استتابته قبل القتل ، فمنهم من أوجب أن يستتاب أولا فإن لم يتب قتل ، وذهب الحسن وطاوس وأهل الظاهر وكثير غيرهم الى القتل فى الحال . قال الشوكانى فى نيل الأوطار ، وعليه يدل تصرف البخارى ، فإنه استظهر بالآيات التى لاذكر فيها للاستتابة والتى فيها أن التوبة لاتنفع ، وبعموم قوله (من بدل دينه فاقتلوه) . ويرى النخعى أن المرتد يستتاب أبداً (أى فلا يقتل) .

تلك أقوالهم فى هذا الباب،ولهم تفصيلات كثيرة لاحاجة الى استيعابها ، والذى نراه فى ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه ، ولكن لا حرج علينا فيما نرجو ما دام عمدتنا فى ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام .

وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن الكريم لم ينص فى آية ما على قتل المرتدين عن دين الإسلام الى دين آخر على النحو الذى شرحناه فى تفسير آيتى الإرتداد السابقتى الذكر . وأما الآيات التى سردها البخارى (١) واستدل بها على وجوب قتل المرتد فوراً ، فليس شىء منها فيما نرى جاء نصاً فى القول بالقتل ، ولا فى بيان حدود الردة وكنهها والتعريف بها ، ولقد نستوفى الكلام فيها بعد بما لا غبار عليه ، بيد أنه يجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع فى هذا البـاب .

أولا ـ إن القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذى يريده الفقهاء يقتل .

---

(١) الجزء الثانى عشر من فتح البارى صفحة ٢٣٦

ثانيا - إن لبدء ظهور الإسلام من الأحكام ما ليس لغيره . ذلك ان المرتدين عن الإسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة إلى التوحيد كانوا يعودون الى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية ، وكانوا إذ ذاك لا جرم يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين فى صفوفهم أو يظهرونهم على عوراتهم ، فارتداد من كانوا يرتدون إذ ذاك عن الإسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين ، ولكن كان دائما مشفوعا بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم .

والمستقرىء لأحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا ، فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده المرتدين ، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين . وإننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويقتل من فوره ، ولو لم يرتد عن دينه ، فما بالنا لا ندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الإسلام الذين إن لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين ، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ، ودلوهم على مواطن الوهن فيهم .

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلهم يرجعون ، فالمرتدون فى صدر الإسلام كانوا فى الغالب ممن دخلوا فى الاسلام نفاقا ، وخرجوا منه للفتنة وكشف الأسرار .

ثالثا - إن الردة التى جاءت فى آيات البقرة والمائدة وغيرها كانت - كما علمنا - ارتدادا عن نصرة المسلمين ، والاشتراك معهم فى محاربة أهل الكتاب ،

لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين، وظفرهم بهم يوماً ما، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الأيادى ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم .

رابعاً - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتصرف فى الحوادث، ونقف عند حدود مقتضيات الأحوال . ولنا من سيرته السامية واعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات، ولكننا ابتلينا بالجمود، وضعفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطرى، ووقفنا عند حدود الألفاظ، وأخذنا نتقيد ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الإلهى ما يرشدنا الى أيسر السبل وأقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر فى ذلك بعض الآيات والشواهد .

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الإسلام ، وهم على مانعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين ، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالأقوام رويدا رويدا ، كما كان يلين لهم من جانبيه ، ويتساهل فى مطالبهم، تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد . ومن ذلك ماروى عن نصر بن الليثى عن رجل منهم، أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم على أن يصلى صلاتين لا (خمساً) فقبل منه ، رواه الإمام أحمد (١) وفى لفظ آخر له على ألا يصلى إلا صلاة فقبل . وعن وهب قال : سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال : اشترطت على النبى ألا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون» رواه أبو داود .

---

(١) نيل الأوطار جزء ٧

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : إسلم . قال : أجدنى كارها . قال : إسلم وإن كنت كارها ، رواه أحمد . قال الشوكانى - بعد أن سرد هذه الأحاديث - فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه، وإن شرط شرطا باطلا، وأنه يصح إسلام من كان كافراً .

فعل ذلك الرسول الكريم ، لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف المدعو جميع أحكام الله فى آن واحد ، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط ، ولو باطلة ، فإن دخوله فى الإسلام على أى وجه جدير أن يوجد فى نفسه من الميل للإسلام والعطف على إخوانه المسلمين ما يدفعه لاجرم الى بذل ما ضن به ونقض ما قدم فى بيعته من الشرائط . ينبىء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جابر المذكور آنفاً (سيتصدقون ويجاهدون) .

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم ، فراعى مقتضيات الأحوال ، وأتى بما هو الأصلح للإسلام والمسلمين .

وناهيك بما فعله فى صلح الحديبية ، من قبوله شروط قريش الأربع ، ورضاه أن يرد الى المشركين من يجيئه منهم مسلماً ، على ألا يردوا هم من فر إليهم من المسلمين . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيه من الأسرار والحكم البالغة ، مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة إلا بعد أمد غير قصير .

لقد كان الإسلام يوم بدا غريباً ضعيفاً ، فكان لا بد من اتخاذ كل ما يمكن من ضروب التحوطات والشدة ، حتى يشتد ويقوى ، ويسلم مما كان

يراد به من الفتنة والأذى . ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم ، أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام : فى ذلك من الأحكام ما يضمن سلامة الإسلام ، فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته ، كان لا بد أن تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار اليه المسلمون من القوة والمنعة ، وما أصبح فيه الإسلام من السلامة والآمان ، من ذلك ما رواه البخارى بسنده (١) عن ابن عمر أن رجلا جاءه ، فقال : يا أبا عبدالله ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الآية) فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى ! أعيّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب الىّ من أن أعير بآية « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . قال فإن الله يقول «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الإسلام ضعيفا، وكان الرجل يفتن فى دينه اما أن يقتلوه واما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام ، فلم تكن فتنة .

فانظر كيف كان عبدالله يفسر الفتنة ، ويفرق فى الأحكام بين عهد الإسلام بالقلة والضعف ، وما صار اليه لعهده من العزة والمنعة . ولعل ما ذكرناه هنا هو سر قول الإمام النخعى ، بأن المرتد يستتاب أبداً ولا يقتل . ذلك أن الإسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين ، بعد إذ أصبح فى مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين ، ومن يرتدون اليهم من منافقى المسلمين .

---

(١) تفسير ابن كثير جزء ٤ صفحة ٣١٦

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه)، الذى رواه البخارى وغيره من أئمة الحديث عامة، على نصّيته غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة، ما وسع النخعى ولا غيره مخالفته.

وإذ مهدنا أمامك السبيل، بتلك المقدمات التى أسلفنا، فاعلم أن الذى نراه، أن المرتد إما أن يرتد عن دينه، فلا ينضم الى المدافعين عنه من المسلمين، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن، كما كان يفعل أولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة، فهذا لا جرم يقتل. وأصرح ما نزل فى قوله تعالى: «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً».

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون، كما سبق فى حديث النفر من عكل. ولا ريب أن المرتدين فى هذين القسمين منافق خائن أو محارب، فلابد أن يقتل من فوره.

وكذلك تفعل الممالك جميعها فى الوقت الحاضر، مع أمثال هؤلاء من أفراد شعوبهم ورعاياهم.

ويلحق بهذا النوع الزنادقة، الذين كانوا على عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه. فقد روى من طريق عبدالله بن شريك العامرى عن أبيه، قوله لعلىّ: إن هنا قوما على باب المسجد يدّعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا! فقال:

ويلكم إنما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ، إن أطعت الله أثابنى إن شاء ، وإن عصيته خشيت أن يعذبنى ، فاتقوا الله وارجعوا ، فأبوا ، فلما كان الغد غدوا عليه ، فجاء قنبر ، فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام ، فقال أدخلهم ، فقالوا كذلك ، فلما كان الثالث ، قال : فإن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة ، فأبوا إلا ذلك ، فقال : يا قنبر أعنى بفعلة معهم فخدّ لهم أخدوداً بين باب المسجد والقصر ، وقال احفروا وابعدوا فى الأرض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار فى الأخدود ، وقال انى طارحكم فيها أو ترجعوا ، فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها .

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية ، نسبة الى كبيرهم عبدالله بن سبأ ، كان أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة . وانما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لأنهم ظهروا والإسلام غض حديث العهد بالوجود كثير الأعداء والمحاربين .

فلو أن على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وختنه ، وأصل العترة النبوية ، أبقى عليهم ، أو خفف العقوبة عنهم ، لانمحت آيات التوحيـــد عن ظهر الأرض ، ولما وجد فى العالم أحد من المسلمين ، ولكان للناس من على بن أبى طالب ، ما كان لليهود من عزير .

أما أمثال هذه الفرق اليوم ، وقد اشتد ساعد الإسلام ، وقويت شوكته وتبينت للناس حقائقه وأصوله ، فلا خوف عليه منهم ، ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم ، اللهم إلا إذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو السجن أو التنكيل ، فهنالك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم أينما ثقفوهم .

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الإسلام ، ولم يخرجوا عليه ، ولم ينضموا الى صفوف أعدائه ، ولم يخونوه فى شىء ، ولكن أضلتهم بعض الشبهات ، التى لم يستطيعوا لها رداً ، والشكوك التى لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فإن سبيلهم فيما نرى ألا يعتبروا كالمرتدين ، ماداموا لم يهتدوا الى الصواب ، ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغىّ .

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم ، أو أن يلزمهم الأيمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ، فإن الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين ، إذاً فلا تكليف إلا حيث البلاغ المبين . فإذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين ، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور الناشئين من المسلمين ، فكيف يؤاخذون إذا ضلت أحلامهم بعد إذ فقدوا أركان الإسلام ، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرأوا الشبهات ، ويهدوا الهائمين فى أودية الضلالات .

أقول ذلك بعد إذ رأيت من الشبان المسلمين ، من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء ، ويغشون مجالس أئمة الإسلام ، لا لغرض سوى استفتائهم فى بعض أصول الإسلام ، والفرار الى معاقل علمهم وهدايتهم ، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام ، حتى إذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة فى ذلك ، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ، ما كان يصدّ أولئك الحائرين عن مجالسهم ، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة ، ودفعتهم

معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم .

ونحن على ثقة أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية ، وعرفوا أسرار سنّة الله فى خليقته ، لما كثرت الملاحدة وفشت المناكير ، فكيف لنا مع جمود المتصدّين للفتيا والإرشاد ، وكيف لنا أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم ، ممن لم يستوعبوا أصول الدين ، ولم يهتدوا الى صواب اليقين ، وهم عاجزون عن مدافعة مالا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات .

بلى لقد تعرض لنفس المسلم شبهة ، لا يستطيع دفعها ، على حين لم يقصر فى التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها ، فهل هناك دين غير الإسلام ، يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة ، ويقول ما قال القرآن : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . « لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها » . « لا اكراه فى الدين » ؟ أفلم يعتبر القرآن التفكر فى ملكوت الله من كبريات العبادات ، يزدلف بها الى الله ؟ أو لم يقل رسوله صلى الله عليه وسلم : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » الى نحو ذلك مما علم المسلمين ، أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الإنسان على معرفة حكم الله فى خلائقه ، وإدراك البدائع من صنعته ، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس وأشباهها ؟ أليس ذلك يخول المسلم ، متى أحسن النية ، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم ، واعماله للفكر عبادة لله تعالى وتعرفا اليه ، بما يفهم من بدائع آثاره ، وما يدرك من دقائق صنعته ؟ إذاً فالإنسان فى نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا ، ازداد من حظيرة الله تعالى اقترابا وحظا .

مقام القرآن الحكيم ازاء العلوم والمعارف الكونية

كثيراً ما نسمع من خطبائنا العصريين ، ونقرأ فى صحائفنا ومجلاتنا الحديثة ، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين فى حرب قائمة دائمة ، لايستقر لها صلح ، ولا تتخللها مهادنة .

يلهج بذلك أشباه المحصلين ، وتلاميذ آثار الغربيين ، ممن يطيرون لكل هيعة ، ويفتنون بكل بدعة ، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد ، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير .

ليت شعرى أفما كان الأجدر بمن منحوا فطرة الإنسان ، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان ، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا إلى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ، ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والأقوال الغربية دون سبر لأغوارها ولاتفكر فى مبلغها من الصدق ، ومايتبع أكثرهم فى ذلك إلا الظن وماتهوى الأنفس . وليت هؤلاء يكتفون بخزى الجمود أمام الحديث فيقفوا ازاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكا ولا ينتحلون فهماً ، بل نراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ، ويدعون لأنفسهم علوم الأرض والسماء ثم لاينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون أبصارهم حتى عن آياتها البينات .

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين تاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التى تعاقبت فيهم ، جهلوا ما انبعثت عنه أحكامهم وأقوالهم فى

مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية ،جهلوا جميع ذلك ، كما جهلوا اللباب من أمر دينهم ، وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم ، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا الطائفتين ، فسوّوا بينهما حباً أو كرهاً،وانتظموهما فى سلك واحد من المعاملة الحرة، البريئة من شوائب التحيز، ولكننا نجدهم إذا عرض لهم شىء ليس بغربى لوّوا رؤوسهم وثنوا أعطافهم، وقالوا فى عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء : «لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبة ، ولا نولى ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها »

وإنه لحسب أحدهم إذا ماشئت إقناعه أن تقول له « بذلك يقول المستر فلان الانجليزى ، أو المسيو فلان الفرنسى،أو الهر فلان الألمانى » . فليكفينك هذا وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين،وليسلسلن لك مجرد ذلك ماشئت من أعنة كل عصىّ شموس

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدروا لزعامة الحركة الفكرية والنهضة العلمية، كانوا طلقاء العقول، أحرار التفكير، لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية إلا ما أمنوا غشه، واستوثقوا من نقاء معدنه ، وكمال صلاحه بعد إذ عرضوه على محك الاختبار،وناقشوا أصحابه دقيق الحساب،وميزوا ما فيه من النافع والضار ، ذلك كيلا يقبلوا قولا ولا يرفضوا رأيا إلا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة . ولكنها فيما نرى نوبات عصبية،وغضبات جاهلية،ملكت أعنة قلوبهم،ولعبت بموازين أفهامهم ، فأطلقت ألسنتهم بالأراجيف ، وسولت لهم كل رأى سخيف.

* * *

زعموا فيما روينا لكم آنفاً معاداة الدين للعلم، وأنه لا يجوز أن يقف الدين فى سبيل الرقى العلمى مهدديه بأنه إذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره المؤكد .

كذلكم يقولون أيضا فيما يرجفون إنه لا بد من فصل الدولة عن الدين وإن حرية الفكر الانسانى تستلزم انقلابه مادياً طليقاً لا يتقيد بشىء من قيود الأديان .

هذه هى الدعائم التى يقيم عليها أولئك الحائرون والأباحيون فى هذه البلاد وأشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم

ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم فى تلك المقالات ، وخيبة ما بيتوا من الكيد السيىء لأهل القرآن، كما أوضحنا فى أكثر مقاماتنا أنه لو كان لذلك الجيش المفتون من الزارين والمستخفين والطاعنين ، لو كان لهم علم بأصول القرآن ووقوف على ما مكن للعقل والوجدان ، والقول من قواعد الحرية الصادقة فى سائر شعب الحياة ، لما زلت لهم قدم فى مزالق التقليد، ولفقهوا جلال ذلك الكتاب الذى يقول :«ولا تقف ما ليس لك به علم» والذى يقول :«فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»

سيقتادنا التعرض لتحليل هذه المقالات ومناقشتها، والرجوع بها إلى الأسباب التى انبعثت عنها لدى الأمم الغربية، والعلل التى بررت رواجها فيهم وبقاءها بينهم ، سيقتادنا تفصيل ذلك كله إلى الخروج بعيداً عن دائرة الموضوع، فكان لزاما أن نقصر القول هنا على ما سيكفيكم أولئك المستهزئين وما سيريكم أن أولئك الأدعياء ما كانوا فيما فعلوا إلا كالشعراء يتبعهم

الغاوون، ألم تروا أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم عن العلم الصحيح محرومون.

☆ ☆ ☆

معلوم أن الحكمة فى ظهور الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إنما هو دعوة أممهم الضالة إلى إصلاح ما فسد من أمرها، ومعالجة ما مرض من أخلاقها، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها.

ولقد جاء أكثر الأنبياء والمرسلين برسالات خاصة، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة فى أقوامهم، جلها فيما يحدثنا القصص اجتماعى وخلقى، ولم يكن فى موسوعات رسالات أكثرهم البحث فى العلوم الكونية والظواهر الطبيعية، بل ولا النظم والقوانين المدنية.

وإذا كانت رسالات أكثر الأنبياء انقطعت بانقطاعهم، ودرست معالمها بفنائهم، حتى لم يبق سبيل إلى ضبط ما جاء منها، ضبط إحصاء واستيعاب، فان لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، فانها مرآة غيرها من سائر الرسالات التى سبقتها.

ظهر المسيح عليه السلام فى جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والدساتير السياسية، بيد أنه ظهر فى أمة اليهود، بعد إذ انصرفوا إلى عبادة أحبارهم، وتقطعت فيهم أواصر الأرحام، وتفسخت الاخلاق عن النفوس، وتفشت المنكرات، وأعوز الناس الرحمة والحنان. حتى لم يكد يبقى لهم فى الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية.

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا، وتزهيدهم فى باطل متاعها، وعند ما ضرب لهم الأمثال

والقصص ، ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التى كانت مالكة لأعنة قلوبهم ، ومضللة لعقولهم ونفوسهم .

ولقد كان من تعاليم أولئك الأنبياء والمرسلين ، ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجراً لهم عن رجس الشهوات التى عكفوا على مرضاتها ، وأسلموا مقاليدهم لها ، حتى أنستهم أنفسهم ، وهبطت بهم إلى مراتب سائر الحيوان الأعجم . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحض على الرهبانية ، والترغيب فى الخصاء ، والحث على افناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة . وما كانت أمثال هذه التعاليم فى سبيل المصلحة العامة العمرانية ، ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشهوات ، وإلا فهى منقصة للنسل ، مذهبة للعمران ، سبيل إلى الخراب والزوال . ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح ، وأكثر من تقدمه من الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، كانت فى جوهرها قاصرة على قسم الجهاد النفسى ، والتربية الخلقية ، كما أنها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت فى شدتها وفداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور .

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس فى الأخلاق بدساتير تبين الخير من الشر ، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا يأتون بشىء كبير فى باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالأمر ، وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الإنسانى ، وكيف وضعوا (طقوس) العبادات ، وحرموا

على الناس حق تفسير كتب العهدين ، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ، ولو كان من غير المعقولات ، إلى أشباه ذلك مما ضجت الأمم النصرانية من هوله ، وثارت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية ،سياسية كانت أو دينية .

لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية ، ديناً تجاوز تلك الحدود التى وصفنا ، فتناول شيئا من الشرائع المدنية أو علما بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما،وذلك وإن يكن فيما يخيل إلينا خروجا عن الحدود العادية للرسالات السماوية، إلا أنه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثاً ، ولم يرسله الحكيم العليم إعتباطا ولا فضولا ، ولكن كان فيمن بعث إليهم هذان الرسولان الكريمان ، من الشئون والأطوار ما اقتضى أن يُمد[1] من قبل القوى العزيز بما لا بد منه فى مصارعة أفكارهم الضالة ، وهداية عقولهم الهائمة، وإصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة.

كان بنو إسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية ، فكانوا يعبدون الأوثان والصور ، ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفا بين الناس فى هذه الديار ، فلما خرجوا الى سيناء ، ولم يكفهم تأديبا ولا عقابا ما لاقوه فى التيه من صنوف العذاب والشدة ، جاءهم موسى، بعد مناجاة الطور، بالألواح يدعوهم فيها الى توحيدالله ، والنهى عن عبادة غيره ، ويحرّم عليهم أن يشركوا به شيئا . ولقد كان لا بد أن يأتيهم بشىء من العلوم الكونية ، لما كان لهم من الإلمام بها والوقوف على نُتَف من غثها وثمينها وفاسدها وصحيحها، فإذا جاءهم بسفر التكوين فإنما

ذلك لتبديد ما تزاحم فى صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التى أبعدتهم عن العلوم بقيوم الأرض والسماوات ، وسولت لهم عبادة الصور والأوثان ، وما فى الفضاء من الثوابت والسيارات . وإذا جاءهم موسى مع هذا بشىء من الشرائع والأحكام التعاملية ، فإنما جاءهم بما كان ضروريا لهم فى تدبير وسياسة أرض كنعان ، التى كتب الله لهم . ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين ، واندمج فى نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان ، لكان فى توراته اليوم من الأحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشىء الكثير .

وهل كان فى استطاعة موسى عليه السلام ، لولا ما أمدّه الله به من ذلك العلم والشرع ، أن يعيد أقوامه الهائمين فى أودية الجهالة الى حظيرة القدس الربانية ، أو يشرق على نفوسهم الضالة بالأنوار الإلـٰهية ؟ كذلكم جاءت رسالة موسى عليه السلام للبلاد . أما محمد عبدالله ورسوله الى الناس كافة ، فإن لرسالته التى دامت نيفا وعشرين عاما ، ولدعوته التى ستبقى ما بقى الإنسان فى الأرض ، من الشئون والخصائص والمقاصد ما لا يشاكلها فيه دين ولا تشبهها شريعة .

لا نعرض هنا لما جاء به القرآن الحكيم من الشرائع الإجتماعية والأحكام التعاملية ، فإن هذا ليس موضوع محاضرة اليوم ، على أننا استوعبنا الكلام فيه ، وفصلناه تفصيلا فى محاضرتنا المعنونة (لماذا ظهر الإسلام فى مكة) .

فأما بحثنا فى هذا المقام ، فإنه خاص بموقف القرآن ازاء المسائل

الـكونية والعلوم العقلية . ولا نعنى بهـذا أنه جاءنا فى هذه المقاصـد بما تجيئنا الـكتب الفنية ، تبويبا وتفصيلا وتدليلا وتعليلا . فإن هذا كما هو معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الأولى للـكتب الإلهية ، ولا من أغراض الرسـالات السماوية ، وإنما يعنينا فيما يلى مدى ما بين القرآن الـكريم والعلوم الـكونية من الصلات ، وهل وقف كتاب الإسلام يوما ما فى سبيل رقى العـلم وحرية الفـكر ، كما يتشدق الخراصون ! أم أنه على العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة ، ومنير البصائر المظلمة ، ومثبت الأفكار القلقة ، ومنعش الهمم الخامدة ، ومحرك الأفهام الجامدة ! ! كذلك يعنينا أن نصف مقامه فى هـذه الأغراض ، وأن نأتى على بعض آياته التى لم يفسرها إلا الزمان ، ولم يكشف دفائنها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئة التى انهزمت أمامها ظلمات التقليد ، وخفى بها عن الأبصار ما كان يعدّ لدى القدماء علوما صحيحة ، ونظريات ثابتة ، وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين ، أو أساطير خرافية توارثها الأخلاف عن آبائهم الأولين .

جاء القرآن بمـا جاءت له سائر الرسالات السماوية قبلا من التعريف بالخالق ، وتقرير العقائد ، وأمهات الشرائع ، وأساس الأدب والأخلاق ، جاء بجميع ذلك ، قصداً الى هداية العالم الإنسانى ، وإرشاده الى مايضمن له السعادة والنعيم فى حياتيه . إلا أن القرآن حينما جاء كان الناس فى جميع الأرض ، كما هو معلوم للمؤرخين ، نهبا مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين من الأشراف والفوارس ، فأما رجال الدين فقد استرقوا من

الشعوب والأفراد ضمائرهم وعقولهم ، فما كان لأحد من أقوامهم فى تلك العصور المظلمة أن يمضى فى شأن له إلا كما يفعل الأسير العانى، عطّلته السلاسل ، وأثقلته الأغلال ، وأرهقه النَصب ، وأنهكته الأوصاب .

كذلك كان شأن الناس فى تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله فى مكة بالقرآن . فاذاجاء القرآن لما سردنامن المقاصد التى نزلت بها الرسالات السماوية الأخرى ، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد واخراج الوجدان الانسانى من نطاق الحجر الذى ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل الآدمى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر . جاء يحفز النفس البشرية ويسوقها ، لتقرأ صحف الطبيعة ، وتتدبرْ آيات صنعتها البديعة . بغض القرآن إلى الانسان، كما أسلفنا، رذيلة التقليد، ونعى عليه الجمود على ماورثه آباؤه الأولون ، أو شاءه الأحبار والربانيون ، حتى لقد سمى القرآن هؤلاء أرباباً لمقلديهم فى آية : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

ولكم عيّر القرآن الغافلين من معطلى العيون عن الأبصار والآذان عن حسن الاستماع والأفئدة عن الفهم والتدبر ، بأنهم كالأنعام بل هم أضل

جاء القرآن والناس فى الأرض أمىّ لا يعلم الكتاب إلا ظنونا وأمانىّ أو مقلد ملكت فؤاده تعاليم الأحبار والرهابين وأساطير الآباء الأولين أو أباحىّ لاقيدىّ استرقته الشهوات والأهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح، أو دهرى يقول إن هى إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر

فى أن تستنير البصائر، و تتحرر العقول، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأن يعلموا أنه لا تغنى نفس عن نفس شيئا وأن الله أقرب إلى الانسان من حبل الوريد ، يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات و يعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والناس فى كل أرض كما وصفت لكم ، فكان لابد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس ، وبين صرعى فرائسهم المسكينة ، تلك التى تزعجهم يقظتها ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الأرض ، فان البعثة المحمدية لم تختم إلا والناس كافة طلقاء عقلا وضميراً ، أحرار قولا وفعلا .

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بدىء عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود فوطئت بذلك الأكتاف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت . فهى بأهل القرآن عاشت، وفى أرض القرآن نمت ، وفى ظل القرآن عزت وسادت

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس وديمقريط والكساجوراس ما لقيته هى نفسها فى بلاد الاغريق ، وهى مهد الفلسفة ومنبتها ؟ أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو وارسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الأساطين ، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة ؟ وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو ، وأمعنوا فيهم تنكيلا

وتحريفا لغير علة سوى أنهم، بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة، استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة إلى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟

ظهر القرآن أول ماظهر فى أمة أمية، لم تألف المباحث العقلية، ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية، فلما جاءهم بما ذكرلهم من إشاراتها أو صريح عباراتها — ولم تتسع لها مداركهم بعد — ذهبوا فى أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يقفوا ماليس لهم به علم، فتقبلوها مؤمنين. وتركوا أمر تأويلها وفهمها إلى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » وقوله « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله « وفوق كل ذى علم عليم » إلى أشباه ذلك من الآيات التى علمتهم من الله أن العقل ليس بعربى ولا عجمى، وأن العلم ليس بشرقى ولا غربى.

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين، بعد إذ أعدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية فتفجرت لأهل القرآن عيونها النضاخة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين، سبق فى كل مضمار، ونقابة خالصة لهم فى سائر شعب الحياة، وقيادة عامة فى ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال.

أجل! ولكن بقايا الصدر الأول، المسمى بالسلف، قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الأغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين، حتى رأوا الكثير فيها

خطراً على دين الإسلام، وحربا على تعاليم القرآن، كما خفّت إذ ذاك أحلام طارت بها الأهواء والزعازع الفكرية الى مسالك متشعبة من الشك والابتداع والإلحاد، حتى إذا ركدت تلك الأعاصير، وثابت العقول الى رشدها، وامتحن الناس موقف القرآن ازاءها، سكنت النفوس القلقة، واطمأنت الأفئدة المضطربة، إذ وجدوا فى آياته المحكمة ما كان جنة لهذا الدين، ومناراً للمحصلين، وحجة قائمة على الجامدين، ورجوماً لشياطين المرجفين من الجاحدين. ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوامون على دين الإسلام الحامون لحماه، يهتمون بأمر تلك العلوم. ويترجمون الى العربية ما كان موضوعا منها باللغات الأخرى، كما أخذوا يتدارسونها، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها، ولو كانوا من غير المؤمنين. فى ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق، تعانق العلم ودين الاسلام عدة قرون، لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام. وما زال ذلك الأمر قائما فى البلاد الاسلامية حتى فسدت الملكة العربية، وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وإدراك تعاليمه ومقاصده بمستقل مداركهم وحُر عقولهم. هنالك حيل بين العقول والعلوم، وبالخاصة فى بغداد، فنصبت طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير، حاجرين على المدارك أن تتحرك فى ميادين المعقولات، وعلى الأبصار أن تتقلب فى صحائف الأرض والسموات. وما زال شيوخ الدين، باسم الدين هنالك، يستأثرون بكل أمر، والخلفاء والأمراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التى تفشت فى أممهم، ويستغلون العامة من شعبهم، استغلال بُهم

الأنعام، حتى عاد الاسلام غريبا كما بدا، وانقلب الناس الى جاهليتهم الأولى. ولقد حذا المسلمون فى هذه النوبة حذو المسيحيين فى البلاد الغربية، فأقاموا فى بغداد ماأقامه الأربيون فى ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم فى الرأى والاجتهاد، ولو كان مرجعهم فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم. فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس فى العقائد والأحكام بأشياء وضعتها أيديهم، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون.

احتكرت هذه الطائفة وبالخاصة فى بغداد علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية وتبعوا فى استبدادهم بالعامة بل وبكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة، شبراً بشبر، وذراعا بذراع، فحرموا وحللوا وفسقوا وكفروا، وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون؛ فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطانا على النفوس والسرائر والعقول، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والأمراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية. فلأغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التى قامت باسم الدين، وما هى من الدين فى شىء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين، قضت بأن يعطل فى بغداد القرآن، ويطفأ بها نوره الساطع الذى جعلها فى عدة قرون كعبة المحصلين، ومثابة المستنيرين، ومهاد توأمى العلم والدين.

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة، كتب الفوز والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل، فهام الناس فى أودية الضلال، ورجعت العقول الى جاهليتها الأولى، انقطاعا عن التحصيل، وتقيداً بالتقليد، وأخذاً بالخرافات والأضاليل.

بهذه النظرية العامة التاريخية لموقف القرآن أزاء العلوم العقلية والكونية، يتبين لكم أن حياة تلك العلوم وذيوعها فى سائر البلاد التى شملها ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معانى هذا الكتاب، ومدى إدراكهم لأسراره وأخذهم بتعاليمه. ولعلكم لاحظتم كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الإسلامية، ومتى انطمست معالمها فى الحواضر التى بها كانت زاهية زاهرة، تضرب اليها آباط الإبل من كل صوب، ويقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الأرض.

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها، يعدى بعضها بعضاً، لاسيما ما كان منها خبيثا، فالشعوب الإسلامية فى الشرق: عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة، فعل فيها رجال الدين، ما فعل فى الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين، وكم من مرة اتحدت أو تقاربت فيها الأوقات التى كانت تقام فيها محاكم التفتيش فى أواسط أوربا، والاضطهادات المذهبية فى بغداد وما حولها.

وما لى لا أحدثكم بما فعل الكشوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذابح التى أحصيت ضحاياها، فبلغت ستين ألفاً عدًّا، مقارناً ذلك بالجناية الكبرى، التى جناها السلطان السليم عام

١٥١٣ م فى حدود العجم ، يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر بها أحد ، حتى إذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو أربعين ألفاً ، ولم يكن لذلك من سبب ، سوى القصد الى إثارة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك العجم ، واستفزازه للمحاربة ، طمعاً فى ملكه ، وقصداً الى إبادة دولته . فالسبب فى هذا المثل كما ترون سياسى بحت ، ظهر للناس فى شكل دينى . ولهذا المبحث من الأحداث والشواهد ، ما يخرجنا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الإيجاز والاجتزاء بالعجالات والأمثال .

كذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم ، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة اليها ، والترغيب فى البحث عن دقائقها وأسرارها ، وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال الكندى . ومحمد بن موسى الخوارزمى ، ويحيى بن أبى منصور ، والعباس بن سعيد الجوهرى ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وجعفر بن محمد البلخى ، ونصير الدين الطوسى ، وألوغ بك ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الخيام ، وابن سينا ، وأبى نصر الفارابى ، وابن رشد ، والحسن بن الهيثم ، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والأثقال والموسيقى وغيرها .

فلم يبق علينا إذاً إلا البحث فى موقف القرآن الكريم ، إزاء ما يسمى الآن بالعلوم (Seiences) ، وهل فى طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة ، ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سداً لا يتعانقان معه ، وقتالا لا يرجوان

سلاماً بعده ؟ أجل ! بيد أنه لا بد لنا قبل الدخول فى تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للعرف الحاضر فى الغرب وكذا فى الشرق ، الذى يسير على أثر الغرب فى كل شىء ، فإن لكل زمان اصطلاحه وعرفه ، ولكل عرف حدوده وحكمه . ولنعتمد فيما نقدم لكم من ذلك على أقوال أساطين رجال الفلسفة الحديثة من أهل أوربا ، فإنهم محدثو هذه الفلسفة ، ومبتدعو اصطلاحاتها ، وواضعو تعاريفها ، فنقول :

(١) يقول هوكسلى : « العلم » فيما أعتقد ، ليس سوى الذوق الإنسانى بعد تربيته وتنظيمه ، ويطلب هذا « العلم » حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس ، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة ، مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (Telescope) ، وهل أقيمت اكتشافات كبلر و نيوتون إلا على تلك القواعد الثابتة ، قواعد الشهود بهذه المناظير ؟

(٢) ويقول الأستاذ بلفور فى خطبة له :

يتوقف « العلم » فى تحصيله والتثبت منه على المقاييس ، فكل مالا يقبل القياس من الأشياء ، فهو خارج أو يكاد يكون خارجاً عن حدوده الطبيعية ، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس ، فهى إذاً لا تكون من موضوعات « العلم » .

(٣) ويقول الأستاذ ونْدِلْ : « العلم » سواء استعان بالآلات أو لم يستعن ، عماده ما يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات ، وما تهديه اليه فى المعامل الكيماوية والمعامل الطبيعية التجاريب والآلات ، التى تمكنه من

انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة ، مع بلوغها من الدقة والضآلة ، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين .

وإذا أردنا أن نبحث فى باطن النظام الآلى للطبيعة أو فى خارجه ، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام ، وكيف كان وما مصيره ، أوحاولنا أن ندرك كنه هذا الكون ، ومبلغ شعورنا به ، ولِمَ وجد ولِمَ خلقنا نحن هنا ، إذا أردنا ذلك ، فإن « العلم » الحديث ليس لديه جواب عن شىء منه ، إذ لا دخل لشىء من ذلك فى الحدود المصطلح عليها للعلم ، وإذا كان لا علاقة « للعلم الحديث » بشىء من تلك المباحث ، ولا جواب لديه عن أمثال ما قدمنا من الأمثلة ، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باسم « العلم » أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله ، أو أنه ليس هناك أرواح ، أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ، ولا جنة ولا نار الخ اه ... مما اقتبسناه لكم هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين فى تعريف كلمة «العلم» وتحديد مداها وموسوعاتها يتبين لحضراتكم أن من الجهل الفاضح واللغط الطائش أن يتعرض باسم هذه الكلمة — ورقعتها من الضيق على ما رأيتم — إلى المباحث العقلية البحتة ، وبالخاصة ماوراء الطبيعة منها فان « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما سمعتم لا يعرض لشىء من هذه المباحث بنفى أو اثبات ، ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة وكيف وهو لا يصل إلى المحسوسات ولا يعرف موضوعا غير الماديات ، ولا منطقا سوى المعامل والآلات

ولقد وقفت الكنيسة فى بدء بناء «العلم» على تلك القواعد الجديدة وقفة

المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الإلهيات فى جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذى خلاصته :

(١) أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان فلسفياً ونظاما . وأنها كذلك هرطقة لأنها بلاريب مناقضة للكتاب المقدس .

(٢) أن النظرية القائلة بأن الأرض ليست مركز الدنيا، وأنها غير قارة، ولكنها متحركة ومتنقلة ، هذه النظرية مساوية فلسفياً لسابقتها فى هذيانها وخطأها ، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة .

ولم تهبط سورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة إلا فى نحو الثلث الأول من القرن السابع عشر بعد إذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم فى فهم عبارة «العلم» ويفقهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلا ، فهنا نرى القسيسين الكاثوليكيين بُليالدو وغسّيندى يتوليان علنا فى الأعوام (١٦٣٩م — ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيق ، فلا يصابان بأذى ، ولا يتهمان بهرطقة .

بعد الذى قدمنا لحضراتكم فى هذا المقام من البيان ، نود أن نقرر بكل توكيد أن موقف القرآن الكريم تجاه «العلم» فى الاصطلاح الحديث، هو عين موقفه إزاء «العلم» فى القرون الوسطى إلى عهد التجديد الغربى ، فهو كما كان قبلا لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير ، والأبصار إلى الاعتبار ، والآذان إلى الاستماع، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار

الكائنات، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها، والتنقيب عن دقائقها، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وأن الله يخلق مالا يعلمون، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة. كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد فى عقائدهم، واتباع الظن فى أحكامهم، والميل مع الأهواء فى تصرفاتهم.

على أنهم مع هذا كله يجدون فى كثير من آى القرآن ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول اليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه. وإذا كان استقصاء ماجاء من ناحية النظريات الحديثة فى القرآن الكريم، وبيان القول فيه كما ينبغي مما لا يتسع له هذا المقام، وجب أن نكتفى هنا بالاتيان على طوائف منها اجمالا لا تفصيل له، وإيجازاً نجتزىء بالاشارة فيه. ففى هذه الحدود التى رسمنا لأنفسنا نقتبس من الآيات الكريمة ماله علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية. وقبل انجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله من القول فأرعونا أسماعكم:

(١) ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها.

(٢) لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بنى اسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر، فكان من الحكمة الالهية أن

يتنزل على محمد فى سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى فى سفر التكوين . والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق ، وتقرير الحق من العقائد، وقبول ما يلى ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية وأصلها وألوهيتها وتزاوجها وما كان من أنسالها فى تكوين هذه الكائنات ونظامها ما قررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والاغريق، وما بثته فى جزيرة العرب وما حولها أساطير الاشوريين والبابليين والكلدانيين . إذاً كان لزاماً أن يسترعى القرآن الناس إلى وجه الخطأ فى عقائدهم ، وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه ، لأنهم وجدوا عليه آباءهم ، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم والحقهم بالانعام من الحيوان .

(٣) كانت إذاً مهمة القرآن الحكيم ، التى أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف للخالق جل شأنه ، أن يبين للعقول بضرب الأمثال لم تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر؟ فهو فى جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة ، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال .

(٤) لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال فى بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ؛ بل جاء فى ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها ؛ كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصواب فيها . ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما ، وألا يقطعا فى شىء فيما لا تبلغه

أبحاثهم وسعيهم ؛ بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ، ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكلون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(٥) إن المسيحيين حينما ثاروا فى وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم التجديدية فى أوربا لم يكونوا ليشبهوا فى شىء من مواقفهم تلك أحداً من الشعوب الإسلامية ، فإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان ، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى إستيضاح ما غمض عليهم منها ، ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد فى رأيه على الحس والمعاينة . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونينى اللذان رفضا أن ينظرا إلى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة)

وقد روى عن غاليليو أن من تلاميذ المذهب الأرصطالى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل ، وانهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك ، إذا نقض منها حجر إنهار سائر بنيانها على أثره ، فكان ذلك سبب مغالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها مجتمعة .

☆ ☆ ☆

والآن ، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية ، ننجز لكم ماسبق لنا الوعد به ، فنقول :

(ا) تكوّن جميع أصول الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث الكترون وبروطون .

الآية « ومن كل شىء خلقنا زوجين اثنين » فما من شىء فى الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء فى ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرهن مما لا نعلم . وجاء فى بيان إجمال ذلك قوله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وفى عبارة « ومما لا يعلمون » من المعانى مايسكن إليه عقل الإنسان فى كل زمان ، ويطابقه كما رأينا أحدث نظرية فى أصول الأكوان .

(ب) تتولد الحياة من الماء .

الآية « وجعلنا من الماء كل شىء حى » وهذه الآية ناطقة بما يطابق العلم الحديث فى هذا الموضوع . ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين إزاء هذه الآية حائرة قلقة ، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه . ولذلك وقع لهم فى تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا .

(ح) تعدد الأرضين .

لم يذكر القدماء شيئا فى أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا ، وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة ، وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق

والعمران . ولم يعتمدوا فى هذا التجويز إلا على الحدث والظن ، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد .

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين فى آية (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) ففى تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض . وفى تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين مابين كل واحدة منها إلى الأخرى مسير خمسمائة عام (١) وفى كل أرض منها خلق ... إلى أن قال وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها الخ . ومن أصرح الآيات فى أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى « ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة » إذ المراد بالسماوات هنا السيارات على مايأتى لنا من التأويل . ومن الآيات البينة فى هذا الموضوع قوله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض وما فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » .

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان فى الأجرام السماوية، ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله.

---

(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسير خمسمائة عام يفسرها الشهرستانى بالدابة تسير فرسخاً إسلاميا فى كل ساعة على ماهو معروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الإسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريبا وهو قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ فى كتابه المسمى (الهيئة والإسلام) صفحة ٩٠ جزء أول .

فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض ، فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم .

(د) السيارات هى التى تدور فى مدارات وهمية ، وليست كما يقول قدماء الفلاسفة إنها ثابتة فى أفلاك دائرة بها ، وإن هـذه الأفلاك لا تقبل الخرق والالتئام، إلى آخر ما جاء للقدماء فى وصفها والتعريف بها، أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة فى آية «كل فى فلك يسبحون» وآية «ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق».

(هـ) الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلهما إلى سياراتها المرتبطة بها وإن اقتضى ذلك إضاعة أضعاف أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها . والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان ، وقابلة للفساد والفناء . ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقـد من مادتها فى الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن. ولا ينبغى أن يزعج هذا عشاق الحياة الدنيا ، فان الشمس على هذا الحساب تحتاج فى فقدها جزءاً من مائة جزء من حجمها إلى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على أنها بعـد أن تصل إلى هـذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة فى أكثر أجزاء هذه الأرض صالحة طيبة .

آيات القرآن فى ذلك «وجعل الشمس سراجاً» «جعلناها سراجاً وهاجاً» قال مقاتل فى تفسير الوهج: يجمع النور والحر، وفى القاموس: وهجت النار اتقدت. ومن الآيات «إذا الشمس كورت» أى ذهب حرها ونورها ، وآية «إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت» «فاذا النجوم طمست وإذا

السماء فرجت وإذا الجبال نسفت » إلى أمثال هـــذه من آيات القرآن الـكريم . وهنا يجمل أن أذكر بالخير أحد مجتهدى الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستانى ، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا فيما بين الهيئة الحديثة والإسلام من الاتصال، فأتى على بعض مباحث قيمةمفيدة يحسن أن أقتبس منها ماجاء له فى بيان معنى السماء فى القرآن إذ يقول : —

(١) إذا وردت السماءوالأرض معاً ومفردتين فى آية ، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والأجرام .

(٢) وإذا ورد لفظ الأرض مفرداً ومعه السماء مجموعة ، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السموات الـكرات والأجرام مطلقاً .

(٣) وإذا ورد لفظ الأرضين مع السماوات مجموعتين ،كان الظاهر من الأراضى السماوات والـكرات البخارية المحيطة بها . ويقول صاحب هـذه الضوابط إنها قليلة التخلف تـكاد تطرد اطرادا كاملا . وكذلك يقول إذا عنى بالسماوات والـكرات البخارية المحيطة بالطبقة الهوائية المحيطة بالأرض قبلت دعوى القائلين بأن نبتون وفلكان ليس لهما سماوات، وأن السموات خاصة بالسيارات الأخرى باحتمال قوىّ . ويـكون الاقتصار على تحـديد الأرضين بسبع — مع أن فلكان ونبتون من الأرضين وأنها تسع — لأنها ذكرت مع السماوات السبع المبصرة بغـير المناظير المـكبرة المقربة . وقد اكتشف نبتون وفلـكان فى سنة ١٨٤٦ م .

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الأرض . قال القزوينىّ : كل ما فوق الأرض فهو سماء ، وقال الطبرسى فى مجمع البيان ، كل ما علاك

وأظلك فهو سماء » وجملة القول فيما قصده القرآن كلمة السماء إن السماء : —

(١) نفس الجو كآية « وجعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سرجا وقمراً منيرا » .

(٢) الأجرام السماوية والسيارات كما فى حديث « إن فى السماء آدم كآدمكم ونوحاً كنوحكم » وكما فى آية « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » .

(٣) جسم عظيم مكور محيط بالأرض ، ولكن اختلف الناس فى فهم كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية ، وهذه مع كرة الهواء التى فى جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها، وفيها يقول الأستاذ فانندايك (جزء ثالث — النقش فى الحجر) :

إنا عائشون فى قعر أقيانوس سيال معدل عمقه على الأقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الأرضية ، وفى هذا المعنى جاءت آية « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ففى مروج الذهب وابن ميثم فى شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذى تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره، وفى كليات أبى البقاء: كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى . وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة (١) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (٢) يوم تشقق السماء بالغمام و (٣) وأنزلنا من السماء ماء و (٤) أولم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى (وذلك فى رأى بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر .

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها ، وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف، أى الذى لا يهبط ولا يسقط لأنه فى حالة بخارية .

وفائدة الجبال فى الأرض وحكمتها انها مقام الانسان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها، اذ هى الجزء الجامد المرتفع الراسى الثابت المتماسك الأجزاء والعناصر الصلبة. ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت الأرض ببحارها ولاضطربت بأمواجها كما يشاهد فى القسم المائى منها وهنالك لا يكون للإنسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان .

ومن الآيات الواردة فى ذلك المعنى (١) « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم » و (٢) « وجعلنا الجبال أوتادا » و (٣) « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » .

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكوّن للانسان مُقاما حصينا لا يهدده طغيان الأبحر ولا يجترفه مضطرب الأمواج . ثم أنها لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة ما لا يخفى على المحصلين . ومن الأفن والخطل أن تتخيل الجبال كالأوتاد تُرَزّ فى الأرض أو الحائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو الخيمة لبنائها وإقامتها على أعوادها فإن هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم . وما لنا

نأخذ بهذا التأويل السقيم ، ولنا فى معانى الوتد لغة مالا يلجئنا اليه ؟

لقد سمى العرب الهنيّــة الناشزة فى مقدم الاذن وتدا ، فيقال « ما أملح وتدى أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة فى فكيه . إذاً لماذا يقذف بنا الشطط فى التأويل حتى نحمل كتاب الله العربى من المعانى ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية؟ أفــلا يعلم أولئك أن الجبال هى المثبتة فى الأرض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة فى الأرض والحائط ، وأن الأمر بهذا ينعكس عليهم إذ تكون الأرض هى الوتد الذى تثبت به الجبال لا العكس .

ثم ماذا عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال فى الأرض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول أولئك الواهمون . إننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السموات والأرض بما قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب ، فهو الرافع لها، كما فى القرآن، بغير عمد مرئية للابصار، ولكن جعلها سابحة فى الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان ، فهى تسبح بقدر فى مدارها سبحا لا يعتوره نشوز ولا نكوب ما دامت تلك النواميس قائمــة معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسماوات « ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده » .

على أن نظرة واحدة إلى نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض تدلك على أن الجبال فى الأرض ماهى إلا كالهانات الناشزة فى سطح جسم الانسان لاتقيم بضآلتها وزناً لاعتداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال

الشاهقة فى كرة الأرض على قلة عددها تتراوح بين خمسة آلاف من الأمتار وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة أخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسم اليها قطر الأرض تقريباً(١)

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال فى الأرض. أما الحكمة فى وجودها فقد سبق الكلام فيها واجماله أن الغرض هو اعدادها لعالم الحياة والعمران فى كرة الأرض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الأحياء واقامة معالم الزينة والجمال فى أقطارها وربوعها

يشير إلى ذلك قوله تعالى: « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ».

* * *

وبعد فقد آن لنا أن نكتفى بما قدمنا لكم من العجالات والأمثال فإن فى استقصاء هـــذه المباحث ما يحتاج الى ضخام المطولات. فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا إلى إكمال هذه الموضوعات وايفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين

ولقد أجدنى لضيق المقام مضطراً أيضا إلى ارجاء الكلام فى التكليف العينى والوجدان الفردى الذى سبق لنا الوعد به إلى فرصة أخرى تتسع لما فيه من المسائل القيمة، نسأله تعالى التوفيق

---

(١) قطر الأرض يساوى ٣٠٠٠ فرسخ.

الآيات والأحاديث التى وردت حول موضوعات الكتاب

فى الحديث الشريف

(١) الدين العقل ولا دين لمن لاعقل له

(٢) أثنى قوم على رجل حتى بالغوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: إننا نمدحه بتقواه لا بعقله فقال إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع الناس غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم.

...

فى القرآن الكريم

(٣) «أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون»

(٤) «قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك فى السماوات، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غروراً»

(٥) «أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»

(٦) « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

(٧) « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

(٨) « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

(٩) « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا يعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون »

(١٠) « وهو الذى مدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ۞ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأُكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

(١١) « كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ۞ قل فلله الحجة البالغة ».

(١٢) « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ۞ أتقولون على الله ما لا تعلمون ».

(١٣) « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

(١٤) « أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون»

(١٥) « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإن هم إلا

يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » .

(١٦) « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولىٍّ ولا نصير » .

(١٧) « ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

(١٨) « قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء » .

(١٩) « وآتاه الله المُلك والحكمة وعلّمه مما يشاء » .

(٢٠) « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » .

(٢١) « هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ » .

(٢٢) « قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين » .

(٢٣) « فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون » .

(٢٤) « ولا تقف ما ليس لك به علم * إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

(٢٥) « يا أبتِ إنّى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سوياً » .

(٢٦) « وقل ربّى زدنى علماً » .

(٢٧) « سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

(٢٨) « وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

(٢٩) « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

(٣٠) « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » .

(٣١) « ومن النـاس من يجادل فى الله بغير علم ولا هــــدى ولا كتاب منير » .

(٣٢) « تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم » .

(٣٣) « (قالوا) إنّـا وجدنا آباءنا على أمة وإنّـا على آثارهم مقتدون (قال) أو لو جئتكم بأهدَى مما وجدتم عليه آباءكم » .

(٣٤) « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » .

(٣٥) « ثُم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعهـا ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

(٣٦) « وأبلّغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون » .

(٣٧) « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » .

(٣٨) « إن فى ذلك لذكرَى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

(٣٩) « فأعرض عمّـن تولَى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

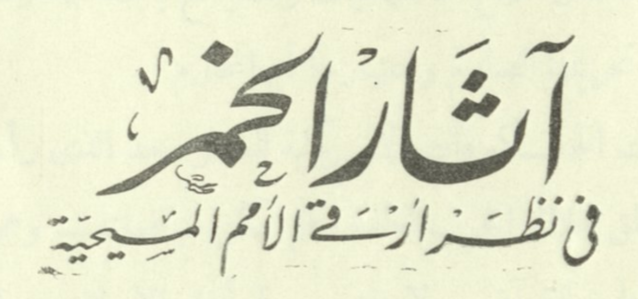
(٤٠) « فذكّـر إنما أنت مـذكّـر لست عليهم بمسيطر » .

(٤١) « فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

(٤٢) « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ؟ » .

وهنالك كثير من آيات القرآن الكريم مختومة بمثل العبارات الآتية « قليلاً ما تذكرون » ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، « إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » ، « إن فى ذلك لآياتٍ للعالمين ، « إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون » إلى أشباه ذلك مما تجدونه منثوراً فى ثنايا الكتاب العزيز .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالآيات المنجيات ؟


آثار الخمر
في نظر أحرار الأمم المسيحية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادى الحكيم ، الفتاح العليم . وصلى الله وسلم على رسوله المبعوث لهداية الخلائق ، وليتمم مكارم الأخلاق .

وبعد ، فإن ما اتخذته حكومات الجماهير المتحدة بأمريكا من الوسائل الشديدة فى مقاومة الخمر ، ومدافعة أذاها عمن هنالك من الأنفس البشرية ، لم يسبق له مثال فى تاريخ الاجتماعيات والشرائع ؛ منذ جاء رسولنا الأمين ، بما جاء فى تحريمها الصارم واعتبارها أم المحارم .

تنكرت الحكومات الأمريكية للخمر بعد الذى رأت من ثمرات تحريمها المطلق خلال الحرب العامة ، فلم تكن فيما فعلته — وهى نصرانية — منصاعة بالطبع للقرآن ، ولا متشبهة بأهل الإسلام . ولكن وجدت فيما قيدته من الأحداث والحقائق ، وجمعته من الفتاوى العلمية والأبحاث الطبية ، مالم تر معه سبيلا الى مهادنة هذه الآفة المنكرة ، وتجاهل شرورها المؤكدة .

لذلك عولت على وضع عجالتى هذه ، لمن لم يدرك أسرار أحكام الدين من المتفيهقين ؛ ولنقص من الحجج البينة ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ؛ وإن الله مع المتقين ؟



حرمت أمريكا الشمالية الخمر خلال سنوات الحرب الخمس ؛ وكذلك فعل غيرها من الدول التي اشتركت في تلك الحرب ؛ ولكن أمريكا التي تعقبت نتائج ذلك التحريم في تلك الأعوام ، والتي كانت قبل الحرب تعالج آفة الخمر بمختلف الوسائل لم تفعل ما فعلت الدول الأخرى من نسخ التحريم عند ماوضعت الحرب أوزارها، بل حرمتها أيضاً بعد الهدنة تحريماً باتاً عاماً ، وكما حرمت شربها حرمت إبتياعها وصناعتها. ثم عاقبت بالسجن شرابها حتى لقد غصت السجون هنالك بمخالفي هذا القانون الجديد الذي لم تأخذ المحاكم الأمريكية - في سبيل تطبيقه على تلك الأمة على حداثة عهدها به - رحمة ولا هوادة .

ضجت من ذلك القانون (طبعا) تلك الأمة التي كانت من أشد الأمم إسرافا في الخمر وإدمانا لهـا ؛ ولكن الحكومة التي أبصرت جلي آثار التحريم في إصلاح الحياة الاجتماعية والآداب الخلقية، كما رأت واضح آياته في تقليل الجرائم والتجافي عن كثير من المحارم . تلك الحكومة لم تتردد في مدافعة أم المنازع الشهوية إلا شدة وصرامة . وآخر ما روته الصحف العامة في ذلك، أن الأمة الأمريكية أخذت تعلل النفس بأن الفتاوى الطبية

ستجد لها مخرجا من تلك الضائقة الآخذة بخناقها ؛ وزعمت أن ليس فى استطاعة المحاكم أن تخالف ما سيفتى به الأطباء من ضرورة استعمال شىء من الخمر على سبيل التداوى . اشرأبت الأعناق طويلا الى تلك الفتاوى الطبية التى لم يرد منها إلا أن تكون تروسا تتق بها العقوبات القانونية وحبائل تتصيد بها الجرع الخمرية . ولكن الأطباء لم يجدوا من قواعد حفظ الصحة ما يضطر حتى المرضى الى تلك السموم المبيدة للأجسام الهادمة للأخلاق ، إذ ما من مرض إلا وله فى الطب من الأدوية النافعة الناجحة ما يغنى عن الخمر . بعد إذ رأت الأمة الأمريكية من أطبائها ما رأت ، أخذت آمالها تتضاءل رويداً رويداً ، ودائرة رغبتها تضيق شيئا فشيئا ؛ فصارت تعلل النفس بأن الجعة (البيرة) ستضيق عنها دائرة التحريم المطلق ، وأن علماء الطب لن يجدوا من العلل والأسباب ماسيلحقها يوما ما بتلك السموم القتالة . ولقد أخذت الشركات الكبرى هنالك قبل عام تتأهب وتستعد لإغراق الأسواق الأمريكية بطوفان من الجعة ؛ بيد أنها كانت تنتظر قضاء المحاكم فى أمرها ، وما ارتاب أحد هنالك فى أن الفصل سيكون لها لا عليها ؛ ولكن أبت حكمة دين الإسلام إلا أن تتجلى ثانية فى تلك المملكة البروتستانتية . فلقد خيبت محاكم أمريكا ، وإصالة رأى رئيسها الدكتور هاردنج ، جميع ما استطاب أولئك من الأحلام ، واستعذبوا من لذائذ الظنون والآمال ، إذ قرر القضاء التسوية بين الجعة وغيرها من صنوف الشراب علة وحكما ولم تلبث أن صدر بتحريمها أمر الرئيس هاردنج حتى للتداوى فكان يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢١ (يوم صدور ذلك الأمر) مبدأ تاريخ الجفاف

التام (كما سماه الغربيون) فى سائر الممالك المتحدة الأمريكية .

وقع هذا الأمر على قلوب الأمريكيين وقع الصاعقة المحرقة ، فلم يجدوا سبيلا لنقع غلتهم والتعلل بأصل علتهم سوى الفرار من وجه القانون والتحجب عن أعين الشرطة الساهرة ، ولكن الحكومة التى أرادت أن تطهر أرضها من تلك الآفة الفتاكة أبت إلا أن تتعقب خفى أماكنها ومكامنها وتريق فى الأنهر والبحار ما تجد من غاليها ومرتخصها ، حتى لقد رأينا صحف أمريكا تنشر الضراعات والابتهالات راجية من دور الشئون البلدية أن تختار ظلمات الليل لنقل ما تريد إراقته من الأشربة التى تصادرها لأن فى نقلها علنا فى خلال النهار مثاراً لآلام الشعب وإيذاء له، إذ لا يزال حديث عهد بقانون التحريم . ولم يفت أولو الأمر فى أمريكا أن الشعب هنالك يجد من السفائن الأجنبية عونا له على بلوغ بعض شهواته ، فإن كثيراً من الناس كانوا يختلفون الى السفائن الراسية فى المياه الأمريكية لا لغرض سوى الحصول على بعض الشراب حتى لقد كانت بعض السفائن الأجنبية تقل ما استطاعت من صنوف الخمر ثم تطيل مقامها هنالك لتصيد أموال ذلك الشعب الظمآن وتعطل من القوانين ما وضع لحماية الإنسان .

تيقظت حكومات أمريكا لهذا فقررت تطبيق ذلك القانون على السفائن الأجنبية متى كانت فى ثلاثة أميال من السواحل الأمريكية، وبرغم ما قدمت لها دول أوربا من الإحتجاجات والاعتراضات لم تزد الحكومة إلا تشدداً وإصراراً فى تطبيق ذلك القانون على السفائن الأجنبية قاطبة .

ولكن المحاكم قضت بإباحة أن يكون فى تلك السفائن ما يكفى ربانها وخدامها ، إذ هؤلاء ليسوا وهم فى سفائنهم خاضعين لأحكام الممالك المتحدة ، فصار المفتشون الأمريكيون كلما قدمت سفينة أجنبية ذهبوا إليها للتفتيش وكل ما يجدونه فاضلا عن حاجات عمال السفينة من مقادير الكحوليات أراقوه فى البحر . وقد تكون أمريكا فعلت ذلك لتتخلص من الحركات العدوانية والضجة التى أقامتها عليها شركات الملاحة الأجنبية ، فتجافت فى معاملتهن عن الإفراط فى التضييق حتى لا ترتبك الشئون النقلية وتضطرب العلائق التجارية بين أهل أمريكا وبين البلاد الأجنبية . وبالجملة فقد صارت السفائن الأجنبية منذ ذلك التاريخ خاضعة لهذا القانون الجديد وللتفتيش متى دخلته فى ثلاثة أميال من سواحل أمريكا الشمالية على ذلك الشرط الذى ذكرنا . ولقد نبهت هذه الحركة الإصلاحية فى أمريكا الشعوب الأخرى الى ما فى الخمر من المضار فما تنفك الجرائد الانجليزية وغيرها يخضن فى أمرها وينشرن الآراء المختلفة فى نفعها وضرها . ومن الدول من أخذن يفكرن فى الاقتداء بأمريكا ولكن لا بتلك الشدة والصرامة .

نشرت صحيفة « المورننج بوست » أن حركة وضع قانون لتحريم الخمر فى بلاد النرويج تشتد رويداً رويداً ثم زادت أن وزير خارجية النرويج خطب فى (كرستيانيا) فأعلن ضرورة تحريم الأشربة الروحية ومصادرة ما يوجد منها فى السفائن ، وأيده فى ذلك الدكتور (شارفتبرج) مضيفا الى هذا قوله : إن قانون تحريم الخمر سيظل أمراً خياليا ما دامت

النرويج ملزمة باباحة إدخال الكميات الكبرى من الأشربة الأجنبية ، مما اقتضته المعاهدات التجارية التي عقدت بينها من جانب وبين فرنسا وايطاليا واسبانيا من جانب آخر والتي تلح البرتغال في إحراز مثلها ، وينتظرون في تلك المملكة أن تعدل الفقرة المختصة بالأشربة في تلك المعاهدات التجارية قريباً .

والفرق بين مافعلته أمريكا وما قررته النرويج أن هذه قصرت التحريم على ما يكون مقدار الكحول فيه ١٤ ٪ أما غير ذلك فلم يشمله حكم المنع بعد ولعل هذه خطوة تمهيدية قصدت بها النرويج أن تستدرج الشعب هنالك في سبيل الإصلاح فلا تباغته مباغتة أمريكا لشعبها بالتحريم المطلق أما (السويد) فإنها لجأت إلى استفتاء الأمة السويدية في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٢ .

وفي اليوم الرابع من شهر أكتوبر من هذا اليوم نشرت الحكومة نتيجة الاستفتاء فأرتنا أن عدد طالبي التحريم ٨٨٩٠٧٨ وعدد المستبيحين ٩٢٤٨٧٤ ومن هذين العددين يرى أن طلاب التحريم المطلق ازدادوا بسرعة مدهشة زيادة بالغة . ذلك إذا ما تذكرنا كيف كان عددهم في السنوات القريبة وليأتين يوم ترجح فيه كفة الآراء المحرمة كفة المستبيحين (وما هو ببعيد) فيلتحق ملايين السويديين بالسابقين الأولين من إخوانهم نصارى القارة الامريكية . ومعلوم أن السوفيت الروسية فعلت في بلادها مافعلت أمريكا فحرمت تناولها وأغلقت حوانيتها ومصانعها وتعقبت شرابها حتى في خلواتهم ومقاصير حجراتهم .

ذلك ما فعلت وتفعل الحكومات النصرانية فى مدافعة تلك الآفة القتالة عن أممها وشعوبها . ذلك عمل أمم لم يجئها كتاب سماوى بشىء مما جاء به القرآن الحكيم من البيان الشافى فى أمر هذه السموم الفتاكة . فماذا فعل المسلمون ولهم من قرآنهم وسيرة رسولهم وعمل الصالحين من سلفهم ما مزق كل حجاب ولم يؤته غيرهم من أهل الكتاب ؟

لقد وقفت أكثر الشعوب الإسلامية جامدة أمام هذه الحركة الاصلاحية الاجتماعية وما كان أجدرها أن تكون إماماً للمصلحين وبين يديها كتاب الله الذى جمع من مكارم الاخلاق وحكمة الحكيم الخلاق ماضمن لها الفلاح القريب وأغناها عن انتظار التجاريب .

وقفت أكثر الشعوب الإسلامية تلك الوقفة الشائنة فلم نر من غير حكومة انقرة الوطنية غيرة على اقامة هذا الركن المكين ومحاربة أرومة ذلك البلاء المبين .

فهاهى تلك مصر مثلا وفى قلبها الجامع الأزهر وعلى آلاف منائرها الداعون إلى الفلاح وفى أكثر مكاتبها نسخ القرآن الكريم وفى جميع كتاتيبها ومدارسها الحافظون والمقرئون وفى افراحها التالون والمرتلون . مصر تلك لا يكاد يمر المار فيها بحارة أو زقاق أو جادة إلا رأى من تلك المنكرات مالا يحمل المسلمين ولا ويلائم آداب الاسلام .

ولقد جعلت أرقب خلال هذين العامين أن يثوب المؤمنون إلى رشدهم وأن تفكر صحافة مصر وتونس والجزائر وأشباهها من البلاد الإسلامية فى الاقتداء بصحف الغرب فيدعون تلك الشعوب إلى الرجوع إلى آداب

دينها وأخلاق نبيها أو على الاقل إلى محاكاة تلك الشعوب الغير المسلمة التى قصصنا قصصها فما كاد يقع بصرى إلا على ابتهالات نشرها بعض الافاضل من قبط مصر فى الدعوة إلى الاقلاع عن ذلك الداء الوبيل واتقاء غوايات الضالين والمضلين .

ومن عجيب أمر المسلمين هنالك أن قابلوا تلك الدعوة بالاهمال أو الاستخفاف فلم يلب منهم تلك الصيحة سوى نفر قليل بالاسكندرية كأن الدعوة إلى تجنب الخمر من الاحداث المبتدعة التى لم يأتهم بها الكتاب الكريم ولم يسبق اليها البشير النذير صلى الله عليه وسلم .

وأعجب من هذا كله أن تقرع تلك العظات والعبر كل يوم آذان شيوخ الاسلام بمصر وتونس ومراكش وسوريا والعراق وغيرهن فلا يزدادوا إلا أعراضا عنها وانهماكا فيما بين أيديهم من مدارسة الخلافيات ومزاولة ما جاء فيها من القصار والمطولات غافلين أو متغافلين عما يفعل الجهل بالدين فى جماعات المسلمين . ذلك وقد أقامهم الله حيث تبسط يد الفضيلة بالاستغاثة وتمتد أعين الدين للاستنفار وتعقد آمال الباكين والشاكين والمستغفرين بالأسحار .

إذا كنا نتحدث أو نفكر فى مقاطعة الاعداء والكف عن معاملاتهم والاعراض عن مصنوعاتهم ومنسوجاتهم على حاجتنا اليها فكيف لا نفكر فى الكف عن ابتياع خمورهم التى هى سم زعاف لأبداننا ومعول ينقض أركان ديننا ؟ نفكر فى الاقتصاد وعدم التبذير فأى موطن أجدر أن

تصان عنه أموالنا عن بيوت الخمر التى تقتـــل فيها النفوس ، ويضحى على جدرانها بالاخلاق الكريمة ؟

نفكر فى الاكتتاب للنقابات وشركات التعاون وتوفير سائر وسائل التخلص من العدو ، فهلا فكرنا فى صرف بعض ما نسخوا به على الخمر الى تلك الوجوه الكفيلة بسلامة المسلمين والبلاد الاسلامية جميعاً ؟ أفلا يجدر بالذين يفكرون فى ترويج الصناعات الوطنية واتخاذ الألبسة القوميـــة أن يحفظوا أيضا نسيج أبدانهم التى بين جنوبهم حتى لا تصل اليها يد الخمر بالنقض والتوهين والبلاء المبين ؟

تقتحم الأمم الاسلامية اليوم فى سبيل حريتهـــا واستقلالها شديد الغمرات، ولكن أنى لهم بلوغ ذلك وجيوش الخمر المستخفية الفتاكة تعين الأعداء على نيل مآربهم من بلادهم ومن جماعاتهم .

تلك نفثة مصدور ضمنتها هـذه المقدمة ، فأما الذين فى قلوبهم مرض فسيقولون ما يقولون ، وإن هم إلا يخرصون ، وأما المهتدون والمستهـدون فانهم سيجدون ان شاء الله فيما يلى من الفصول مافيه شفاء المؤمنين ، ومشكاة تشرق بمصباحها حكمة الكتاب المبين .

تمهيد :

جاء النبى (صلى الله عليه وسلم) عندما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً » بآية التحريم المطلق، بعد إذ أسماها القرآن الحكيم رجساً من عمل الشيطان، وأبان ماتوقعه بين الناس من العداوة والبغضاء ، وما تستتبعه من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

أما الفقهاء فلم يقفوا عند منطوق هذه الآية الكريمة ، ولم يجمعوا على الأخذ بقول الرسول : « كل مسكر خمر » ، بل أخذوا يشتغلون ببيان ما هى الخمر، وهل يندمج فيها النبيذ ؟ وما حكم المثلث العنبة ومطبوخ النبيذ ؟ وما حكم استعمال الدباء والحنتم والمنقور من آنيتها ؟ ثم أخذوا يطيلون فى ذكر حد شاربها، وهل يشترط فى ذلك أن تشتد وتغلى وتقذف بالزبد ؟ وفى أى نوع يشترط الإسكار ، وما درجة الإسكار الموجب للحد ، وهلم جرا.

أسرفوا فى تلك الوجوه ، كما أكثروا من الخوض فى أحكام الوضوء بالنبيذ وإزالة النجاسة العينية به ، وما حكم المعاملات والجنايات التى تقع من السكران .

والخلاصة ان المستقرىء لما كتبه الفقهاء فى الخمر لا يجد من بينها تعرضاً لبيان ما تفعل بالأفراد والجماعات من المضار البالغة ، كتمزيق الصلات ، وتوهين أركان الحياة الاجتماعية ، ونشر السفاهات ، ومضاعفة الجنايات ، واضعاف الأبدان ، وقتل الأجنة والأطفال أو توريثهم معضل العلل والعاهات، عقلية كانت أو بدنية، الى نحو ذلك مما سنأتى بعد على تفصيله.

ولو أن الفقهاء وقفوا عند ظاهر الآية الخمرية ، فلم يتناولوها بتلك التأويلات . ولم يغلوا حدها بما جاءوا من الخلافيات ، لما وجد المسلمون سبيلا الى ما قارفوا من المحارم ، ولسلمت أخلاقهم وجماعاتهم من الوهن والضعف، الذى أمكن منهم الأمم الأخرى، وجعلهم لقمة سائغة لكل آكل.

فلنبين فيما يلى آراء أهل الذكر وفتاواهم التى بنت عليها أمريقا حكم المنع المطلق ، فانها جديرة بالتعريف ودوام الذكرى، وما يتذكر إلا أولو الألباب .

الكحول والحياة الاجتماعية :

كان من أسوأ آثار الثورة الفرنسية التى قررت حقوق الانسان وحرية الأفراد، انتشار بلاءين عظيمين انتشار البرق فى الفضاء ، حتى لم يكن ينجو منهما فى الجملة الا من يسمون فى عرف الشعوب الأوربية بالأمم المتأخرة، أو بعبارة أخرى «الأمم الاسلامية»، وأول هذين البلاءين: الخمر ، وهى شرهما .

تمشت الخمر فى الشعوب المتحضرة تمشى السم البطىء الفتك فى القنوات الدموية من الأجساد الحية ، فلم تكد تبدو أعراضها إلا بعد تمكنها من جدران الحياة الاجتماعية وقواعدها ، فكان أول من شعر بمقدمات شديد زلزالها تلك الشعوب التى جعلت الخمر شعار رقيها ، وآية مدنيتها ، وأخص بالذكر من بينها شعوب أمريكا وأوربا الشمالية والوسطى .

شعرت تلك الشعوب المسرفة على نفسها بما أصاب أركان حياتها

الفردية والاجتماعية من الرجات المصدعة ، وتنبهت بعد أحلام سكراتها اللذيذة إلى مافعلت أيدى الخمر بأخلاق أفرادها وأبدانهم، تنبهت الى الأعصاب المتوهنة ، والأدمغــة المضطربة ، والآجال المتقصفة . تنبهت الى فتكها بالحياة البيتية ، وتمزيقها ما أمر الله والطبيعة بوصله من العلاقات الأهلية والصلات النسبية . تنبهت الى الجنايات الفاشية والأمراض الفاشية .

تنبهت تلك الشعوب الى هـذه الآثار الوخيمة ، فأخذن يحاربن الخمر بما عنّ لهن من متنوع الوسائل . عالجنها بمضاعفة الضرائب ، واعتقال الشارب ، وانتخاب النساء فى المجالس البلدية ، وتحديد نسب الكحول فيما يباع منها ، ثم أكثرن من نشر التعريف بمضارها ، وفتاوى الأطباء فى أمرها ، الى أشباه ذلك من الوسائل المعروفة فى أمريقا وأوربا . وقد تعقب الأستاذ اشتاينر الألمانى طائفة من الأحداث التى انتجها استعمال الكحول ومبلغ جنايته على الحياة الاجتماعيـة فيها ، فلم يلبث أن ارتد على نظرية « حرية الفرد فى تصرفاته » بالنقض والتعويض ، منكرا على عامة رجال القانون اطلاق القول بهـذه النظرية . قال الاستاذ : يقول القانونيــون مالنا وللانسان يوقع الأذى بنفسه، ولو بلغ فى ذلك الأمر مرتبة الانتحار. إن للانسان أن يفعل مايشاء، مادام لا يتعدى على حقوق الأغيار، أو يضر بالأمن العام . إن له أن يشرب حتى يموت ، كما أن له أن يذهب بعقله وإرادته ومروءته وسائر ماقد يكون فيه من الفضائل والمواهب الانسانية غير محاسب ولا مسئول ، ما دام هو يريد ذلك لنفسه . أما تقرير الأمن العام وصد الشارب عن العبث به، وكذا عن استخفافه بحقوق الآخرين،

فقد عهدت الحكومات المنظمة الى رجال الادارة والقضاء بتدبيرهما، واتخاذ الذرائع اللازمة لهما. فأما الادارة فانها تعتقل الشارب فى محاجر دوائر الشرطة، حتى يفيق من سكرته، ويسلم الجميع من شره وعربدته فان لم يعثر عليه الا بعد الجناية أو ارتكاب احدى الجرائم الأخرى سيق الى دوائر القضاء لينال هنالك من العقوبات ما يزجره عن العودة ويحذر غيره عواقب الاعتداء. فالقضاء والادارة إذاً كفيا الجموع البشرية ما قد يفضى اليه الكحول من الشرور والأذى. أما رجل يشرب بين جدران بيته أو يموت فما لنا به؟ ذلك قول القانونيين، وهو كلام يشبه الحق ويمثل أروج صور المغالطات الجدلية، أما أنا فانني أعيذ أصول الشرايع التى ما وضعت إلا لسلامة الشعوب بأن يزج بينها بأمثال هذه الفلسفة المفضية، الى وهن الأبدان، ونقص الانسان، واختلال الموازين العقلية، وتقويض دعائم الأخلاق التى هى قوام الأمم وشرائط حياتها الاجتماعية.

إن من فساد الرأى أن يفرق الانسان بين الفرد والجمع، ما دامت الجموع تتألف من الافراد، اذ بدهى انه كما تكون الأفراد كذلك تكون الجموع التى تتألف منها. فما أخلق رجال التشريع، الذين نصبوا أنفسهم لاسعاد أممهم، أن يفقهوا أن زواجرهم لا تغنى عن الجماعات شيئاً، كما أنها لا تنفع المصالح العامة، ما دامت الأفراد التى تتكون منها تلك الجماعات مطلقة الايدى فى ضروب الرذائل والمفاسد، مرسلة الأعنة فى دروب الغواية والاستهتار. يسكر انسان فيحدث من الاضرار ما قد تحكم فيه المحاكم بالتعويض أو الغرم أو الحبس «البسيط»، فهل تمنع هذه

الزواجر ذلك الشارب وأشباهه من أصحاب الكحول أن يأتوا ما تزين لهم الخمر من الجرائم كبيرها وصغيرها؟ يعرف المتعقبون لما يرد على المحاكم من الأحداث التى يقارفها أصحاب الكحول أن زواجر المحاكم لا تكاد تغنى عن الأمن والحقوق العامة شيئا ، لاسيما أن من ديدن القضاء المدنى الرفق بمن يقارفون الجرائم وهم سكارى، بل إن كثيراً من المحاكم لدينا تقضى ببراءة هؤلاء، فلا تقيم لسيئاتهم وزنا، ولا تقدر الفعلة بنتائجها .

ولقد أعجبنى ماسمعت من أن شريعة الإسلام تؤاخذ من غيب عقله متعمدا بجميع ما يجترحه من الجرائم لا تفرق بينه وبين الصاحى المتعمد . كما أنها تحرم جناية الانسان على نفسه أو شيء من بدنه تحريمها عدوانه على غيره، ويفرق القانونيون بين اضرار الانسان بنفسه وبين عدوانه على الغير، ثم أنهم مع علمهم بأن فى جميع ما يوقعه الإنسان بنفسه من ضروب الأذى ضرراً بينا للجموع، الذى هو جزء منها، لايقولون بعقوبة من يؤذى نفسه ولو بمحاولة الانتحار ، بله الحشيشة والأفيون والمرفين والكوكايين والكحول .

فليت شعرى أين شديد غيرتهم على الجموع البشرية وحرصهم على سعادتها إذاما أباحوا للافراد، الذين هم عناصر الأمم وأجزاؤها التى يتألفن منها، تلك السموم المذهبة لروح الجماعات ، وكيف لهم أن يدعوا كفاية ما بين أيديهم من الذرائع للوصول إلى إسعاد الجماعات الإنسانية ؟

إننى لا أكاد أتلقى نظرية « حرية الأفراد المطلقة فى تصرفهم » إلا كحديث خرافة، وسيتبين العقل البشرى يوما أمرها . ولقد سبقت روسيا

البلشفية غيرها ، فضربت على الأيدى، وأحاطت الارادات الفردية الجامحة بكثير من القيود، غير مباليـــة بما زعم رجال التشريع أنه أمهات أصول القوانين المـدنية والدساتير الاجتماعية ، وكذلك فعلت أمريكا المتحدة، إذ بطشت فى موضوع الخمر بتلك القاعدة بطشتها الـكبرى ، وهنالك انقطعت حجج الثرثارين المتفيهقين الذين استخفوا بما فعلته روسيا ساخرين منها ، ملحقيها تارة بالأمم الأسيوية ! وأخرى بالشعوب البربرية . إن على المشرعين أن يفقهوا فشل جميع الوسائل التى قرروها لمنع شرور أصحاب الـكحول ، وحسبهم أن يرجعوا إلى مابين أيديهم من الاحصاءات الثـــابتة قديمها وحديثها ، ليروا كيف يفعل الـكحول فى نشر الجرائم . فـكيف فشلت التحوطات الإدارية التى قررتهـا الدساتير المـدنية ، فلم تحم السلام العام من الاضطراب ، ولم تق الجموع الانسانية جنايات أصحاب الشراب .

بين يدى احصاء الدكتور « باير » طبيب سجن « بلتزترير » يرينا الحقائق المرة التى تقشعر لها الابدان. فلقد وجد أصحاب الـكحول المدمنين أكثر عددا وأذى للأمة من غيرهم، لا فى باب المخالفات والجنح العادية فقط، ولـكن فى السرقات الـكبرى، وسرقات السابلة من الناس، و(أكثر شطار الجيوب منهم) ، وكذلك فى باب الحرائق التى يراد بها التذرع الى النهب والسلب .

ثم بحث الدكتور فيمن اقترفوا الجرائم وهم فى حالة السكر ، ولـكنهم ليسوا من المدمنين ، فوجد النسبة الى مجموع من كانوا فى السجن هكذا :

٥١,٤ ٪ أوقعوا بغيرهم من الناس أضراراً بدنية

٦٨,٣ ٪ عصاة للاحكام والأنظمة الادارية

٥٥,٦ ٪ مخلون بالآداب العامة الاجتماعية

وقد وجد الدكتور « هوجو هوبه » طبيب الأعصاب فى كينجربرج قبيل عام ١٩٠٧ أن نسبة من فى مستشفى المجاذيب هنالك من الرجال أصحاب الكحول الى سائر من فى البيمارستان ٣٠ ٪ ، ومن السهل أن يدرك الانسان مقدار ما أوقعه هؤلاء من الأذى بأنفسهم وأطفالهم وأهليهم وقومهم قبل سوقهم إلى المستشفى ، هذا فضلا عن حرمان الأمة التى هم جزء منها تنتفع بهم أو أن تسلم على الأقل من شرهم .

يحدث الكحول ضعفا فى الأذراة وشللا للاعصاب ، وبذلك يضاعف الأمراض النفسية والعقلية ، فتتخذ المحاكم من هذه الأمراض ذرائع تبررها إخلاء سبيل الكثيرين من المقارفين للكبائر والصغائر الاجتماعية ، معتبرة إياهم مرضى غير مؤاخذين ولا مكلفين ، وما كانوا مرضى ولكن أقبلوا على الكحول مختارين عامدين ، فاخلوا بأيديهم الموازين الفطرية التى ما أودعهم الله اياها الا ليزنوا الأعمال والافكار ، ويفرقوا بين المنافع والمضار ، فماذا فعلت التشريعات المدنية وأصحابها لتق المجتمع البشرى ما يأتيه أولئك المرضى من الجرائم ، وهم كلما سيقوا إلى المحاكم لينالوا من الجزاء ما يردعهم ويجعلهم عبرة لغيرهم اطلقتهم لسبب أمراضهم العصبية ، فمكنتهم بذلك من العبث بالأمن العام والعدوان على حقوق الاغيار ، فلا هى اعتقلهم ، فكفت أقوامهم أذاهم ، ولا هى عزرتهم التعازير الرادعة بغيرهم من قرابين المؤاخذين وضحايا الكؤوس ، ولا هى قررت

عقوبة للشاربين على مجرد الشرب ؟ أكتب هذا وبين يدى إحصاء رسمى وضعته الحكومة الالمانية ، أرى فيه كيف بلغ استخفاف المحاكم ورجال التشريع بما يفعله أصحاب الكحول ، ومدى جناية هذا الاستخفاف على الشعب برمته ، ولا بأس من اقتباسه فيما يلى :

عام	مسوقون للمحاكمة من الكحوليين	مبرأون منهم
من ١٨٩٧ إلى ١٩٠١	٢٨٦٣٢٥٩	٦٢٥٠٢٣
١٩٠٢	٦٠٩٧٠٠	١٣٦٥٨٦
١٩٠٣	٦٠١٥٣٤	١٣٦٨١٤
١٩٠٤	٦١١٠٢٣	١٣١٨٤٣
١٩٠٥	٦١٤٩٤٠	١٣٩٧١٥

فاذا بحثنا عن النسبة منذ ١٩٠٢ نجدها هكذا :

سنة ١٩٠٢ ١٨,٣ ٪ أى الخمس تقريباً
« ١٩٠٣ ١٨,٤ ٪ « «
« ١٩٠٤ ١٨,٨ ٪ « «
« ١٩٠٥ ١٨,٩ ٪ « «

مما ذكرناه هنا يتبين مقدار ما يصيب الشعوب من النتائج السيئة، والاضرار الكبيرة، الناجمة عن تبرئة المحاكم لأولئك المجرمين، وإطلاق أيديهم كلما سيقوا اليها للعبث بالمصلحة والسلام العام . ولقد كان ينبغى للمشرعين أن يعطوا الذرائع أحكام الغايات ، فلا يبيحوا بحال ما تناول

المخدرات وسائر ضروب الأشربة الكحولية ، وهم يعلمون مبلغ الأضرار التى تحدثها مباشرة أو بوسائط عاجلة كانت أو بطيئة آجلة ، ولقد نجد من أمهات الأصول فى مذهب الإمام مالك بن أنس وغيره سد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام الغايات والمقاصد . فما أجدر رجال القوانين المدنية فى أوربا ومقلديها من الشعوب أن يحذوا ذلك الحذو، وأن يحرموا كل أنواع الأشربة الكحولية قليلها وكثيرها ، وأزيد على ذلك تحريم استعمالها حتى للتداوى، مخالفاً فى ذلك ماذكره بعض الفقهاء ، فانه ما من مرض إلا وله من الأدوية الحديثة، بل والقديمة، مايغنى عن سائر الأشربة الروحية : كما تقف عليه فى الفتاوى التالية .

سمية الكحول

يعتبر الطب الكحول وما يمازجه من الأشربة الروحية من أقسام السموم ، ويراه أشد خطراً من الأفيون والكوكايين والمورفين، لما أسلفنا من أنه يحدث التسممين البطىء والعاجل جميعاً بخلاف السموم الأخرى، فان منها مايؤثر على الفور من تناوله ومنها مالايؤثر إلا بعد سريانه فى المجارى الدموية ، لأنه لاقدرة له على بلوغ أجزاء الجسم إلا بواسطة دورة الدم .

يشرب الشارب الكحوليات ، فسرعان ماتنبث فى أعماق الجسم وغضونه غير محتاجة فى بلوغ دقائق فلذاته وإصابة ماخفى أو نأى من ذراته إلى الاستعانة بتلك الدورة الدموية ، لأنها كما قدمنا تتغلغل وتتمشى غير معتمدة إلا على قوتها الفطرية وروحها الكحولية .

تتسرب الأشربة الكحولية على أثر تناولها كما هى ، فتصيب حجيرات الجسم قبل أن تتحلل، وهنالك توقع بها العطب أو تضعفها وتوهنها، لأنها تحولها من الحالة الزلالية إلى الحالة الجبنية، فتفقدها المــــاء الذى هو شرط لحياة الحجيرات الحيوانية، بل حياة حجيرات سائر الكائنات الحية.

ينزح الكحول بنفسه فى أعماق الجسم مباشرة محدثاً وماوصفنا من الضرر، وقد يفارق الجسم منه بالتنفس قبل التحول والتحلل من ٥٪ إلى ١٠٪ وأما الباقى فانه بعد أن ينصب فى البدن نائلا منه ماشاء يحرق ويتحلل فى أنسجة الجسم متحولا إلى عنصرين هما الماء والحامض الفحمى .

وقد أثبتت المباحث الدقيقة أن ليس فى حجيرات الجسم وفلذاته مايقوى على شىء من مدافعة الكحول ومقاومته سوى حجيرات الصدرية وحجيرات الأروم المنوية، بيد أن كنه التفاعل الكيماوى الذى يقع بين الكحول وبين عناصر البدن وحجيراته لايزال سراً غامضاً على المنقبين .

يصيب الكحول جميع مانسج منه البدن من غزل العضلات وغزل القنوات الدموية،وغزل الأعصاب، وغزل الدماغ والمخ السارى فى العظام . يصيب الكحول جميع ذلك، فلا يسلم من بطشه شىء منها ، بيد أن أعجل آثاره وأظهرها ما يبدو من الضعف فى مراكز القوى العقلية والحس والحركة ، فاذا أخذت منه مقادير ذات بال عوقت الدماغ وما فى العنق والصلب من المخ عن أداء وظائفها . وأول صرعى الكحول من القوى العقلية قوة الحكم وقوة التدبير والتأمل . وإذا كانت الأشربةالروحية تزيد على أثر تناولها فى نشاط أطراف الجسم للحركة ، وتستخفها إلى العبث واللعب ، فانها لاتلبث

أن تتغشى العضلات فتثقلها بالخدر والفتور، وكذا الدماغ فتعطله وتخل بنظام مداركه، فلا يرى الشارب إذذاك إلا مايرى النائم أو المحموم، ثم لايلبث أن تزايله هذه الحركة، تاركة ذلك الجانى على نفسه رهين العوامل الهادمة لكيانه

يتوهم بعض الشاربين أن تخفيف الكحول بالأشربة وقتله بالماء، يكسر من سورته، ويفتر من سطوته على المجموعة العصبية، ولكن الأستاذ شيميدبرج قام فأثبت بطلان ما زعموا، وأبان أنه مهما بلغت درجة تخفيفه فلا منجى للأعصاب ولا لعناصر البدن من سيء تأثيره.

ولقد يفقه مبلغ مايصيب الجسم من الأذى إذا مافسدت المجموعة العصبية، كل من عرف وظائف الأعصاب فى البدن، وأدرك أنها رسول العمل والحركة، ووسائل الإحساس، وعقد الإتصال بين القوى المعنوية والبيئات الخارجية، بل إن لها فوق ذلك من الوظائف فى تدبير ما بطن من الأحشاء والغدد والحجيرات مالا يعلم مداه سوى خالقها ومسخرها لمادبر وأراد.

وإذا كان تأثير الكحول فى الجسم عامة والأعصاب خاصة ماوصفنا، كان من الهين أن نفقه مبلغ ماينال الكحول من الحياة الاجتماعية ومدى شروره فيها.

اقتبسنا فيما مضى رأى العارفين فى مدى غواية الأشربة الكحولية لشاربيها، واستدراجها إياهم فى سبيل الجرائم والجنايات، ورأينا عجز دوائر القضاء والادارة عن وقاية الجموع المدنية بالغ أذاها، فلنجتزىء الآن الكلام فى علاقة الكحوليات بالأبواب الآتية:

١ – الصحة اجمالا

٢ — الحياة المنزلية عامة ، والزوجية خاصة

٣ — البغاء والعهارة

٤ — التجارة والصناعة والوصلات (طرق المواصلات)

٥ — مافى خزائن بيوت مال الحكومات من الأموال

⁂

الكحول والصحة اجمالا :

ينحصر اضرار الكحوليات بالصحة فيما يلى :

(ا) إضعاف أنسجة الجسم عن النماء وإفسادها إياها رويداً رويداً حتى تنتهى بالوفيات المبكرة .

(ب) إضعاف الجسم عن مقاومة الأمراض ومدافعتها، لاسيما ما كان منها معديا .

(ج) الابطاء بالشفاء من الامراض التى تصيب الجسم، لاسيما الامراض الخبيثة كالزهرى وأشباهه .

(د) افساد أنسجة الأعصاب والنخاع والدماغ، فينتج اذ ذاك ما يسمى بالأمراض العصبية والأمراض العقلية على اختلاف انواعها .

(ه) ايراث ذرارى الشاربين من أنواع الأمراض المادية والعصبية ما سبق لنا شرحه آنفاً .

ولقد أحصت ألمانيا من يموتون بسبب الخمر سببية قريبة أو بعيدة فكانوا من أربعين ألفا الى خمسة وأربعين ألفا فى العام، وفى الوقت نفسه

بلغ من كان الكحول حائلا دون شفائهم ، أو معوقاً لهم عن البرء في العام ، مليونا ونصف مليون نسمة . وقد أثبتت احصاءات شركات التأمين الانجليزية أن الكحوليات لا تقصر بطشها على المدمنين وحدهم بل إن المقتصدين فى شرابها أسرع موتا من المتحرجين مطلقا . وكذا أثبتت الاحصاءات الألمانية أن عدد المصابين بأمراض عقلية وعصبية بسبب الكحول، فى المانيا يكاد يكون ثلث المصابين بتلك الامراض مطلقا، أى أن الكحول وحده يبطش بالأعصاب والعقول البشرية مقدار ما يبطش نصف مجموع سائر العلل الأخرى .

إن سعادة الجماعات الانسانية، واسعة الرقعة كانت أو ضيقتها معقودة بمبلغ حماية ما لديها من الانظمة والقوانين للافراد الذين تتألف منهم حماية تمكن كل فرد من أداء وظائفه الاجتماعية على أكمل وجه وأصلحه، وليس معنى ذلك مجرد الدساتير والنظم التى توضع لصد الناس وزجرهم حتى لا يعدو بعضهم على بعض فى المعاملات العادية ، ولكن المراد أوسع من ذلك وأعظم .

تتألف الحياة الاجتماعية من حركات الجوارح وسكناتها ، كما أن هذه الحركات والسكنات ليست منبعثة غالبا الا عن الفكر والارادة اللذين مركزهما ومصدرهما وآلتهما معا هى المجموعة العصبية، فمتى لم تستقم مادة وكيفا اختل ولا شك ما يصدر عنها من الأفكار والارادة ، ثم يختل على اثر ذلك ماينجم عن اختلال الفكر والارادة من الحركات والسكنات وهنالك لا تستمتع الأفراد، ولا الأسر التى تتألف منهم ، بشىء من الحياة

القوية السليمة . وإذا كانت الجماعات والشعوب ليست سوى مجموع الأسر المتألفة من الأفراد ، فكيف يستقيم أمر تلك الجماعات وتسلم حياتها الاجتماعية من العطب أو الوهن إذا لم يكن هناك من الدساتير والنظم الاجتماعيـــة مايحول بين الافراد وبين ينابيع العلل والأمراض المضرة بصحتهم أو المخلة بنظام أمزجتهم وميزان أعصابهم ، وكيف تصح وتستقيم الحيـــاة الاجتماعية إذا ثقل كاهلها بالأعباء الثقيلة والتكاليف الشاقة التى تستتبعها تلك العلل والأمراض ، والتى تنفق فى سبيلها ذخائر بيوت المال وما يتفصد عن جبين الفلاح والعامل من الضرائب والمغارم ؟

تعرف الشعوب مبلغ مايحدثه الكحول وأشباهه من المضار ، ويشعرون بما يصيب أبدانهم وقواهم من آثارها ، ثم لانكاد نجد مع ذلك أمة أو حكومة عنيت بأكثر من تبديد الأموال الغزيرة فى معالجة ضحايا الكحوليات واسعافهم واقامة الملاجىء والمستشفيات لمرضاهم ومعاتيهم . ما أصـــدق الأستاذ ليرنيلين إذ يقول : « لايكاد العامل يقتطف شهى ثمرات يده التى تنبتها قواه العاملة ، حتى يجد أركان هذه القوى قد زلزلت بالأشربة الروحية وانقلب عاليها سافلها »

إن أظهر ماتكون آثار معاول الأشربة الروحية فى الجنود وطوائف الصناع الذين تحتاج صناعتهم جهوداً ومشاق كبيرة ، فان الكحوليات تنقص من قواهم نقصاً بالغاً ، وتوهنها عن النهوض بما تحمل كواهلهم من الأعمال الشاقة . ولقد ترى المعدنيين فى الجبال يتحرجون عنها فلا يقربونها ، قلت أو كثرت .

حدث فى برلين عام ١٨٩٠ حر، لم يكد يعرف لشدته مثيل فى تاريخها، فلقد أجهد عمال المصانع والمزارع، وكشف عن مبلغ طاقة كل عامل، كما فضح مزاعم أصحاب الكحول ووهن حجتهم، إذ قالوا إن الأشربة الكحولية تذهب النصب وتجدد القوى وتريح الأعصاب المجهودة. وليس لدينا فى هذا الباب أبلغ من تقرير لمهندس أعظم مطاحن برلين نشره إذ ذاك، حيث يقول: اشتد الحر فى اليوم الثانى من أغسطس حتى بلغ ٣١ درجة، استمر عمالى يحملون ويجرون ويخبزون، وهم بين النيران المتسعرة فى الأفران والنيران المندلعة الألسن من السماء. اشتد الحر، حتى خيل إلينا أن برلين انقلبت جزءاً من قلب أفريقية، ولكن رجالى لم ينفكوا يشتغلون. لقد يتوهم أن هذا كذب أو مبالغة، ولكنها الحقيقة الصريحة التى لا يصعب إدراكها ذلك أنى لم أمكن هؤلاء الرجال من شىء من الاشربة سوى ماء أحلى بالسكر وشيب بقليل من الخل. ولقد رأيت عملة الأقسام الأخرى، الذين استباحوا الجعة (البيرة) وأشباهها من الأشربة، قد تركوا أعمالهم عجزاً ووهنا، فلم يستطيعون معالجتها إلا غرارا.

ونشرت جماعة المباحث العقلية والنفسية فى مونيخ حديثاً تقريراً جاء فيه: (إن الأمراض التى كانت زالت، أو كادت تزول فى خلال سنوات الحرب، بسبب تحريم الخمر، أخذت تزداد أعراضها ظهوراً بعد الهدنة رويداً رويداً. كان بمستشفى الأمراض العقلية بمونيخ سنة ١٩١٠ من المرضى ٣٠٠ وفى سنة ١٩١٤ منهم ٥٧٧، فلما حرمت الخمر على أثر اعلان الحرب أخذ عددهم يتراجع ويتناقص حتى لم يتجاوز ٤٣ فى سنة ١٩١٩، ولم يتعد متوسط

المسوقين إلى ذلك المستشفى فى الشهر الواحد أربعة نفر، فلما وضعت أوزار الحرب عاد الناس سيرتهم الأولى، وأقبلوا على الخمر ثانية، ففى سنة ١٩٢٠ بلغ العدد ٧٢، وفى ١٩٢١ بلغ ١٢٨، ولقد كان المجلوبون الى الملجأ فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ ثلاثة أفراد فقط، فبلغ المتوسط الشهرى ١٢ فى سنة ١٩٢٠ و ٢٨ فى سنة ١٩٢١، وكذلك ترى عدد المجلوبين اليه فى الأشهر الخمسة المتعاقبة التى مبدؤها شهر اكتوبر سنة ١٩٢٠، يتصاعد هكذا ١٦ + ٢٧ + ١٨ + ٢٤ + ٣٩، وأكثر هؤلاء من شراب الجعة البفارية، ويخشى أن تطرد هذه النسبة التصاعدية فى الأمراض العصبية والعقلية، حتى يعود ما كان قبل الحرب من الاختلال والعربدة والجنايات التى هى ثمرة المشروبات الكحولية.

ونشر طبيب المسابقات الرياضية الدكتور « هركيها بمر » فى مجلة مونيخ الطبية الأسبوعية مايلى : « دلت المشهودات التجريبية وأثبتت أن تأثير الأشربة الروحية أبلغ وأشد مما دلت عليه الأبحاث العلمية الكيمائية : ولقد طبقت تجارب على أشخاص متعددين انتخبوا لقطع شوط مائة متر جرياً وسبحاً، بعد الفحص عن أحوالهم البدنية واختيارهم من بلاد تشابهت أجواؤها وطبائعها، فكانت النتيجة أن الأشربة الروحية، مهما قل مقدار المتناول منها إذا احتسيت قبل المسابقة أضرت بالقوة الجسمية ضرراً بليغا، وبذلك ثبت بطلان ما كان يتوهم من أن شرب القليل من الكحوليات قبل المباراة يزيد الجسم نشاطا ويعينه على الغلب . وبالطبع لاتهم هذه النتيجة المشتغلين بالمسابقات الرياضية فقط، بل إنها تفيد جد الفائدة طلاب قسم الفسيولوجيا

المختص بالعضلات والأعصاب، كما أنها ضرورة المراعاة والتطبيق فى المدارس التجهيزية والعالية جميعا ، لا سيما مدارس الصناعة والهندسة .

تصدى فى الأزمنة الغابرة أناس للتنفير من صنوف الخمر ، مستندين فى تبشيرهم وتحذيرهم إما إلى ظاهر أضرارها، وإما إلى أنها من العبث الذى لا حاجة اليه والذى تصان عنه أفعال العقلاء . ولم يكن يبلغ العلم بهم إذ ذاك مبلغه بأهل هذا العصر، فما كانوا ليقدروا على معرفة ما يصيب البشر من شربها، ولهذا نجد العصر الواحد كان يجمع بين سقراط أو أفلاطون أو أشباههما من أساطين الحكماء الذين أبغضوها وبغضوا فيها، وبين ما لا يحصى من الخاصة والعلماء الذين عشقوا جامها واستعذبوا مذاقها واستطابوا أحلامها ، ثم لم يجدوا فى عظات الحكماء وحججهم ما يزع ميول نفوسهم ، ويكبح جمحات شهواتهم فيقيهم شر غوائلها ومنصوب حبائلها ، ويدرأ عن الحياة الاجتماعية بلاها وأذاها، اللهم إلا ذلك القانون الذى وضعه كيكورج، فحرم به المباشرة بين الزوجين فى حالة السكر ، فاعتبره التاريخ من أحسن قوانين الصحة القومية والاجتماعية، ولولا النذر القليل الذى جاء به الشاعر هوميروس فى وصف ما قد تزين الخمر لشاربها من الانتحار أو غيره من ضروب الأذى، لما عرف عالم الشعر العتيق سوى آيات تمجيدها، وفاتن ما نحيها من الخصائص والصفات .

وبالاختصار لم يقص علينا التاريخ القديم، ولا تاريخ القرون الوسطى، غير اسم رجل واحد أدرك خفايا شرورها. وقرر رجحان اثمها على ما يعزى من النفع اليها ، ثم بين للناس باسم « الله والدين » أنها رجس من عمل الشيطان لا فلاح للإنسان إلا باجتنابه . ذلك محمد « رسول الله صلى الله عليه وسلم »

فلقد صدق الحملة عليها حتى عدها أصحابه فى كبار المنكرات وسموها أم الخبائث ، ولكن مئات الملايين من غيرهم ما انفكوا يمجدون ذكرها، وتطير أحلامهم لذكراها غافلين عما تفعل أيديها فى أبدانهم وآجالهم وسلالاتهم .

يقولون إن الكحوليات مؤلفة من الفحم والاكسجين والماء ، وما هذه العناصر سوى مواد ضرورية لتوليد الحرارة اللازمة للجسم ، وقد ضربوا الأمثال بغيرها من الأجسام المشاركة لها فى التألف من المواد الاحتراقية كالسكر والأدهان والمواد النشوية .

ضربوا تلك الأمثال، ونسوا الفرق الواسع الذى بين الكحوليات وبين هذه الأجسام .

فهموا أن العناصر التى تتألف منها الخمر تكسب الجسم حرارة متى احترقت ولكنهم نسوا أن أذى الخمر وآثارها التسميمية تحصل على أثر شربها ، أى قبل أن تتحلل إلى تلك العناصر المفيدة للجسم، بخلاف السكر والدهن والأشياء النشوية .

يعتمد الغافلون، فى تأييد أوهامهم هذه، على ما يحسه الشارب عقب التناول من الحرارة ، ولكنهم تنكبوا عن الصواب، وأخطأوا فى الحساب، فلقد ثبت أن جسم الشارب لا تزداد حرارته أصلا، كما يدل على ذلك امتحانه بالترمومتر ، ولكن الكحول يوسع العروق والأوردة الشعرية المنبثة فى سطح الجسم ، فيسارع الدم من داخل الجسم الى سطحه ، ليملأ ماحدث فيها من الفضاء، حاملا معه حظاً كبيرا من الحرارة، وأكثر القنوات الدموية تأثراً ما كان منها منبثا فى وجه الانسان ، ولذلك يكون وجه

الشارب أشد الأجزاء احمراراً وحرارة . ولما كانت الحرارة التي يجلبها الدم الى سطح الجلد أشد من حرارة الهواء المحيط به، يحس الشارب بانخفاض درجة حرارة الهواء عن حرارة سطح جلده ، فيحسب أن الحرارة عامة في جسمه ، وأن مبعث شدتها ما تناوله من الخمر، ولا يكاد الشارب يتنبه مرة واحـدة الى سبب ما يحسه في أكثر الاحـوال من مسارعة البرودة الى جسمه،وشعوره بقشعريرة سارية في أعماق بدنه على أثر انصراف مقدار كبير من الحرارة الى سطح الجلد .

ولكون الكحوليات كما أسلفنا لا تحترق في الجسم الا بعد أن تؤتيه ما طبعت عليه من الأذى، ألحقها الأطباء بفصيلة السموم ، ولم يفرقوا في اطراد آثارها بين قليلها وكثيرها .

قد يستخف أنصار الشراب بما تفعل معاول الخمر في الصلات الزوجية ، ثم يتغافلون عما يعقبها من تهير صروح العيلة ، وهم أنفسهم المبتلون بالمر من فواجع نتائجها . انتهى

يتناول الرشيد الكأس ، فلا تكاد تلمس شفتيه حتى تنفخ فيه من روحها نفخة تفك عقال عقله،وتنكث مبرم عزمه ، ثم لا تعتم أن تنشط به الى منازع الشهوات ومصارع الأهواء ، فلا عجب أن يستهين إذاً بما استودع من حقوق زوجته الغافلة، وهي في خدرها تخفر ذمامه وتفي بعهده، وقلما عرف من الشاربين من عف عن غير زوجته، أو أدى تكاليف بيته على النحو الواجب ، وذلك لأن مجالس الشراب تلعب بالرؤوس وتعبث بالأحلام ، وتثير الميول الشهوية ، وتحول بين الأنفس وبين ما قد تكون

التربية أو الدين أكسبها من الوزعة والروادع ، ثم أنها مع ذلك تنسى الشارب فى نشوته كل شىء الا ما هم به واستطابه لوقته ، فلا تمكنه من التفكر فى زوجة أو ولد، ولا تذكره بميثاق ولا عهد. تجمع مجالس الشراب الى موائدها خفاف الأحلام من الرجال والنساء ، لاسيما مجالس الضيافات والأعياد والأندية ، حتى اذا فك الكحول معاقد الألسن ، وزحرح عن الوجوه أغشية الحياء ، وملأ الرؤوس بلذائذ الاحلام، ضاقت صدور ضحاياه عن نذر الحكمة والرشاد، وصمت أسماعهم عن داعى الكياسة والسداد ، فسلس اقتيادهم الى مصارع الاهواء والشهوات . تعرف الزوجات من أمر أزواجهن السكيرين جميع ما وصفنا ، ولكن لا يزلن يدافعن عوامل الغيرة عليهم، تارة بالفرق من الطلاق ، وأخرى بالفزع من شرهم عن مناقشة الحساب ، ثم لا يفتأن يتسلين طورا بمغالطة الأنفس ، وآخر بما يشعرن به من العجز عن معالجة ما فسد من أزواجهن ، وبالجملة لا يزلن كذلك حتى تهن عزائمهن، فلا تلبث هوجاء الغيرة أن تدفع بهن فى أوعر المسالك وأخطرها ، تدفع الغيرة النساء إذا ما عيل صبرهن (وما أشدها فيهن) تدفعهن الى الانتقام من أزواج صرفهم الكحول عن الوفاء لأهليهم، ثم قبض أيديهم عن الانفاق فى سبيل مرافق زوجاتهم وأولادهم ، فلا يدعن ذريعة يرين فيها إطفاء لبغض غليل صدورهن الا فعلنها . وإذا بلغ الكحول بالزوج والغيرة بالزوجة ما وصفنا ، فماذا عسى أن يكون حظ من ينبت بينهما من الأولاد، وماذا عسى أن تكون مصائرهم ؟

لا جرم أن فى كدارة العيش المنزلى ، وفقدان الزوجين للمودة والرحمة والسلام، ما شئت من العلل والأسباب المفضية لامحالة إلى تعس الأولاد وشقائهم ، ونـكد عيش الأمة التى تبتلى بهم .

ترمى الأشربة الروحية البيوت بصنوف المحن، وتبتليها بالمنافرات والفتن، فلا تفضى فيها خصام إلى سلام، ولا تقف مجادلاتها عند حدود الكلام، ثم قلماسلمت أطفال البيت من الشر المتطاير والشرر والصدام الذى لا يبقى ولا يذر.

امتحن الدكتور منكمولر أحداثا انتزعتهم الحكومة الألمانيـة من أيدى أهليهم الـكحوليين ، فوجد فى رؤوس أكثر من ثلثيهم آثار جروح أصابها بهم أهلوهم وهم سكارى .

وبدهى أنه متى توهنت عقدة الزواج المقدسة، كان من الخطأ أن يرجى دوام وجودها ، كما أن من الحمق الظن بسلامة الذرارى الذين تنسلهم تلك العشرة المتوهنة من أقسى الأمراض والعلل البدنية والنفسية جميعاً .

إن أسرع ما يطبع عليه طفل ذلك الزواج الخشن من الأخلاق عدم توقير أبويه اللذين نسلاه ، فيشب بالطبع على الاستخفاف بغيرهما من سائر الناس، لأنه إذا لم يكبر أبويه ، وهو يعلم أنهما مصدر وجوده وعماد حياته، فأخلق به أن لا يجل ولا يوقر من لا رحم بينهم وبينه من سائر الناس.

ذلك ، ومن أمهات المسائل المنزلية التى يجنى عليها الـكحول تدبير المنزل وسياسته. أتى (جروبر) و(كريين) فى جداول لهما فى هذا الباب بحقائق دامغة وإن كانا لم يتعرضا فيها إلى البيوت المدمنة إدمانا .

ترى فى تلك الجداول أن ١٧ بيتا من بيوت الطبقة الدنيا القروية يبتلع

الكحول من دخل العائلين لها كل سنة ١٢,٣٪ وهذا المقدار لا يقل عن ثلث ماينفق على تغذية البيت الواحد إلا بشيء زهيد ، بيد أنه يزيد على مجموع ما يدفع فى أجر السكنى زيادة فاحشة .

نعم أن الصناع البرلينيين أحسن حالا فى الجملة من أولئك القرويين من أهل (بادن) ، فلقد أنتج البحث فى ٢٢٧ بيتا امتحنت بدقة أن متوسط ماينفقه البيت الواحد على الكحول من دخل العائل ٦,٩٪ ، ولكن ليس معنى هذا أن إضاعته ذلك المقدار لم تفلج به السياسة المنزلية ، فانه على زهادته النسبية أكثر فى الجملة مما ينفقه ذلك البيت فى الاضاءة والتدفئة، ثم هو أفحش جداً من مجموع ماينفق فى سبيل الملابس عامة . وإذا كانت تلك النتائج السيئة ناجمة عن تصرف المقتصدين من الشاربين ، فماذا يكون مصير تدبير منازل المدمنين الذين لا يضنون على الخمر بما تشاء من أجورهم على ضآلتها غالبا، أولئك الذين يستوفون أجورهم الاسبوعية فى مساء السبت، ثم ينطلقون قبل رؤية منازلهم إلى ما اعتادوا من المواخير ، فيضحكون حول دنانها مما لا يستخف به من أشطار تلك الأجور ، وربما استخفهم الشراب إلى مخادع البغايا والصواحبات أو مكامن الميسر والقمار (وهنالك الطامة الكبرى) فلا يعودون إلى زوجاتهم إلا بالنزر اليسير مما قبضوه قبل ساعات من دخولها، تأخذ الزوجات ما احتجب عن أعين الكحول من بقايا أجور أزواجهن، فيبدأن بأداء نفقات الاضاءة والغاز والماء والسكنى، ثم يثنين بابتياع الأقوات اللازمة لأفراد البيت ، وكثيراً ما تضيق رقعة تلك البقايا عن جميع تلك الحاجات الحيوية ، فلا يسع الأمهات سوى النقص من مقادير الأقوات

الضرورية ، وهنالك تبدأ أيدى الوهن والضعف تعمل فى أجسام الأطفال والأمهات جميعاً .

ومن النساء من يشعرن بضرورة العمل فى المصانع والحوانيت، ليسددن بعملهن ماينفتح فى بيوتهن من أبواب العوز وخروق الحاجة ، ولكن هل يغنى ذلك شيئاً ؟

لقد شوهد أن أصحاب الكحول من الآباء ، متى رأوا أزواجهم يستعن بشىء من العمل، لايلبثون أن يقتطعوا من جراية البيت (ما أجروه عليه من الرزق) مقدار ما تناله أيديهن، فلا يرتد إذ ذاك على المنازل من عمل الزوجات خارجها سوى التضحية بثمين الزمن اللازم لتدبير الأطفال وتدبير أنفسهن وأزواجهن .

وإذا كان من النساء من يعهدن بأطفالهن خلال غيبوبتهن عن المنازل إلى الجارات والصديقات، فان السواد الأكثر يتركن أفلاذ أكبادهن فى أيدى الشقاء واشتراك العطب والفساد، ولذلك تضطر الحكومات اليقظة إلى انتزاع هؤلاء الأحداث من بيوتهن فتدخلهم فيما أعدت لأمثالهم الأشقياء من الملاجىء ومكاتب إصلاح الأحداث . ولقد توهم يوما ما أن الزيادة فى أجور العمال قد تصلح من أمر منازلهم ، وتمكن الأمهات من توفير مايلزم المنازل من أسباب الراحة، ولكن التجاريب أثبتت أنه كلما زيدت الأجور ازدادت البيوت شقاء وعنتا ، لأن نماء الأجور يضاعف ميول العمال إلى الاستزادة من الشراب ، وكذلك الشأن كلما لجأت الأمهات إلى استدرار الرزق بما فى موسوعاتهن من الوسائل الأخرى، فلقد تعمد الأم إلى مافى منزلها من الغرفة

أو اكسار البيت فتؤجرها من كل مستفتح، تقصد بذلك استجمام ما قديدفع عن أولادها سورة الحاجة، ويقيهم عضة العوز، وهنالك تضطر أن تحشر نفسها وزوجها وسائر أولادها فى غرفةواحدة، أو كسر غرفة، تاركة ما بقى من المنزل أو الفراش لأولئك الغرباء الذين كلهم أوجلهم من العاطلين وذوى الأخلاق المتفسخة، فهل يجهل إنسان نتائج مايكون إذ ذاك من ضيق المخادع واكتظاظ المراقد، وفرط التماس بين أهل البيت وبين المختلفين اليه من أولئك الأجانب المجهولى الحال.

أما حرمان أهل ذلك البيت من أكثر أسباب الراحة، ودبيب عقارب الغيرة والريبة بين رئيسيه بحق أو بغير حق، فانهما أسرع ثمرات تلك الضرورة ظهوراً، وأشدها مرارة وغصة. وخليق بنا أن لانغفل هنا وصف ماتجنى الكحوليات على المعارف والمعلومات العامة فى تلك البيوتات السا كرة، فلقد شوهد فيها أن ماتنفقه فى سبيلها لا يكاد يبلغ خمس ماتجود به على الأشربة، ولا يكتفى الكحول بازدراد حظ كبير مما يجب أن ينفق على التربية والمعارف (المدرسة والكتب والجرائد)، ولكنه كما اقتبسنا آنفا يوهن القوى البدنية والعقلية فى الشاربين من أبناء ذلك البيت، حتى يعوقهم عن النماء والتكمل. جاءت بذلك احصاءات المدارس الابتدائية والثانوية جميعا. وأما فى المدارس العالية فان الأمر غنى عن الدليل، فكم أفضت قوانين جماعات الطلبة هنا (فى المانيا) إلى نتائج مؤلمة فاجعة قاضية على مستقبل كثير منهم بالادبار والخيبة. تضطر تلك القوانين، حتى من لم يذق الأشربة الروحية، أن يندمج فى سلك ضحاياها، وأن يشرب من كؤوسها وأقداحها ماقرره قانون الجماعة

التى يعتزى اليها . هنالك تتغشاهم الأمراض ، وتضعف قواهم عن مقاومة العدوى، ثم يتفشى فيهم التخلف عن الدروس والخيبة فى الامتحانات . يعرف جميع ذلك من خالط تلك الطبقات فى المانيا، وراقب ما يفعل الشباب الأخرق بنفسه وبأمته فى بلاد العلم والمدنية، وعصر الأدب والنور .

الكحول والحياة التناسلية

قال الاستاذ كيخ الطبيب الألمانى الشهير : ليس لمن يرون البحث فى الخمور أن يتساءلوا عما فيها من الفوائد للجنس البشرى ؟ أو مقدار ما ينبغى تناوله منها للتداوى ؟ أو على أى نسبة يجب أن تكون مقادير الكحول فيها ؟ ولكن يجب ان يستفتى العلم والاحصاءات عن أنواع جناياتها على الانسان، فرداً كان أو جماعة . أن المشروبات الروحية ليست الا جيشاً من الأمراض، المعضلة وينبوعا يفيض بمختلف الجرائم . ثم هى طاعون يتلف الذر قبل التخلق ، أو يقتل الجنين خلال الحمل أو الوضع ، ومن ولد من هؤلاء حيّاً عاجله فى أذاه بمهده، وإذا قدر له أن يفلت من فتكه وهو فى المهد فانه سيعيش معرضاً للأمراض المعضلة أو العاهات الملازمة .

أما تأثيرها فى أبدان شاربيها ونفوسهم، فانها تنهك قواهم، وتضاعف عللهم، وتقلل عملهم، وتميت ارادتهم، وتضعف فيهم الشعور بالتبعات العامة والخاصة، ثم هى تظاهر الأمراض الخبيثة كالزهرى والسل على المصابين بها ، فإما أن تعجل بآجالهم، أو تعوق عنهم شفاءهم . وبما أن استقصاء الكلام فى هذه الجزئيات يقتضى ضخام الجلود ، فإننى أجتزىء هنا بالبحث فى آثار

تلك الآفة فى الحياة التناسلية، لما فيها من عظيم الخطر على عـــدم تنبه الناس اليه .

للاستاذ «نـكلو» تجاريب قيمة، عرف بها تأثير الأجسام الغريبة فيما فى الأبدان من الألياف والخلايا والغدد والسوائل التى تفرزها تلك الغدد.

ومن نتايج أبحاثه هو والاستاذ « برطهوليت » وغيرهما أن للـكحول تأثيراً واضحاً فى أجزاء الانسان المفرزة لمياه التناسل ، فانه يفسدها ، فـلا يجعلها صالحة للتخلق ، وكثيراً ماامتحنوا مياه التناسل الحيوانية، بعداعطاء أصحابها الـكحول،فوجدوها إما خلوا من العدسات الذنبية التى يتخلق منها الحيوان، أوتحتوى منها على مالا يصلح لتـكوين الثمرات الصحيحة القوية .

ولقد أجمل الأستاذ « برطهوليت » فيما يلى ما شاهده فى كثير من الجماعات الانسانية (١) يموت شرابو الـكحول أصغر سنا من غيرهم . (٢) إصابة الضعف والعطب لأعضاء الشراب أسرع منها إلى أعضاء غيرهم . (٣) ٨٦ ٪ من المياه التناسلية توجد خالية من كثير من الأروم الانسانية (العدسات الذنبية) . (٤) إن تجرد المياه التناسلية من الأروم الانسانية يصيب شراب الـكحول قبل غيرهم بزمن طويل . (٥) مما يفعل الـكحول بمياه التناسل أنه إذا أشربته المرأة فإنه يفسـد البويضات التى هى شرط لتخلق الجنين .

* * *

مما تقدم يفهم الناس سر شقاء كثير من المتزوجين ، ونـكد عيشهم ، بسبب حرمانهم الأطفال، ويتجلى كيف يظلم الأزواج بعضهم بعضا ، ويتهم

أحدهم الآخر بالعقم ، وماهو فى الحقيقة عقم ، ولكنه سفه الأحلام ، وتناول السموم القاتلة للأروم ، ولقد أثبتت المشهودات الميكروسكوبية أن بين مقادير الأروم فى مياه أصحاب الكحول وغيرهم بونا واسعاً وفرقاً عظيما ، فإنما يفقد من أروم القسم الأول يبلغ ٥٥ ٪ مع أن نسبة ما يفقد من القسم الثانى لايكاد يتجاوز ١٥ ٪

يغفل الناس عن ذلك الداء الدفين ، ويزيدهم إغراء وإقداما على تلك الآفة ما يتوهمونه من انتعاش أجزاء الجسم عقب تناول الخمر ، ونشاط الوسائل الشهوية وآلاتها ، ولو أنهم درسوا لعرفوا مبلغ ما تجنى عليهم أنفسهم تلك الكؤوس ، بل وعلى من قد يرزقون من الثمرات والذرية .

راقب الأستاذ «سوليفان» آثار المشروبات الروحية فى ذرارى أصحاب الكحول ، فسجل بعض مشهوداته فى الجدول الآتى ، مقايساً بينهم وبين ذرارى المسلولين وذرارى أصحاء غير شاربين .

النسبة إلى مائة طفـــل	الأصحاب الكحول	للمسولين	للعاديين
مات فى حالة الوضع	٥,٢	٣,١٠	٢,٧٩
فى الشهر الأول	٦,٣	٤,٢	٤
من شهر إلى ٥ أشهر	٧,٧	٦	٤,٨
من ٥ أشهر إلى ١٢ شهراً	١١,٢	٥,١	٦,٣
من سنة إلى ٥ سنوات	١٤,٦	٩,٣	٥,٧
المجمـــوع النسبى	٪٤٥	٪٢٧,٦١	٪٢٥,٣٩

ولقد شاهدت أنا (الدكتور كيخ) إنه بينما ٩ ٪ من الازدواجات الصحية العادية محرومة من الأولاد، نجد ١٤ ٪ من ازدواج أصحاب الكحول لا تثمر. ويجمل بى أن أقص مثلا أورده الدكتور «شواقهوفر» على امرأة صحيحة البنية لا تشرب المسكرات، تزوجت ثلاث مرات على التعاقب، فأما الزوج الأول، وقد كان صحيح البنية لا يشرب أيضاً، فقد أولدها ثلاثة أولاد أصحاء لا عوج فى أخلاقهم ولا عاهة فى أيديهم، فلما قد مات عنها تزوجت برجل من أصحاب الكحول، فولدت له ثلاثة أيضاً مات أولهم شاباً بالسل (ولم يكن لهذا المرض أثر من قبل فى ذلك البيت) بعد أن سرف فى الشرب كأبيه، فاما الولد الثانى فانه ألحق بأصحاب الكحول وشرار الناس كما فقد الهمة والمروءة، وأما الثالث فقد ضئيلا مضطرب الأعصاب، وارثا عن أبيه بعض الأمراض، ولكنه لم يذهب مذهب أبيه وأخويه فى الشرب، ولعل سبب ذلك أن ضعفه ومرضه اللذين ولد بهما اضطرا أبويه إلى العناية به وتجنيبه للشرب وغيره من كل ما من شأنه مضاعفة علله وزيادة ضعفه. فلما مات الزوج الثانى، تزوجت بثالث، وكان صحيح البنية غير سكير، فأولدها أيضاً ثلاثة أصحاء.

فى هذا المثل، وما لا يحصى من أشباهه، يرى المتدبر كيف يفعل الكحول بالذرارى، وكيف يجنى الآباء والأمهات على أفلاذ أكبادهم بتناول ذلك السم الزعاف. ولقد يكون أصحاب الكحول آونة أكثر ولدا من غيرهم، ولكنهم مع ذلك يقدمون بأيديهم الأثيمة جلهم قرابين الموت، وهم أجنة فى البطون، أو صغار فى المهود، أو يجعلون

من أبدانهم مراتع للجراثيم الفتاكة ، ومعارض للأمراض المتنوعة، إذا ما طالت حياتهم .

وأحصى الأستاذ مه (فى برن : عاصمة سويسرا) أولادا نبتوا فى بيوت مدمنة وبيوت متأثمة (أى ممتنعة عن ذلك الإثم) ، ووازن بينهم عددا وعافية فوجد ٨٢ ٪ من أولاد المتأثمين عاديين فى أبدانهم وأطوارهم ، وأما أولاد أصحاب الكحول فقد كانوا ١٨ ٪ عاديين ، و١٢ ٪ ماتوا من ضعف صغار، و٨ بلها، و١٣ مصابين بالصرع ،و ٥ حدثا، و٥ ذوى عاهات مختلفة ، و ٥ مسرفين فى الشرب مع ضعف فى أعصابهم أو إرادتهم . وقد امتحن المسيو ليجران فى باريس ٢١٥ أسرة من ذوات الكحول بها ٨١٤ ولدا فوجد بالنسبة إلى المائة ٢١,٧ ماتوا خلال الولادة، و ٨٧,٦ عاشوا ولكن بأمراض وعلل مختلفة ، ومن العائشين مطلقاً أو ضعاف العقول ٥٠,٣ بلها و٣٠,٨ سكيرين و٢٧ ٪ مصابين بالنقرس والآلام العضلية، و٢٢,٠٧ ٪ ذوى أمراض نفسية عامة، و٢٠,٤ ٪ بالصرع أو الاضطرابات العصبية، و١٤ ٪ بالسل أو أمراض أخرى عضوية، و٩,٧ ٪ جناة و٦,٦ ٪ مصابين فى الطفولة بالتهاباب مخية .

* * *

على أن من آثار الكحول أيضا إضعاف الغدد المفرزة للبن فى أثداء البنات اللاتى يولدن لآباء يشربون الكحوليات، فان بنت صاحب الكحول كثيرا ما تفقد اللبن رأساً إذا هى كبرت وولدت ، أو يقل فيها اللبن إذ ذاك الى درجة لا تكفى الطفل ، ولقد دلت التجاريب والاحصاءات على ارتباط ابن البنت بكون الأب من أصحاب الكحول أو غيرهم ارتباطاً مطردا ، فقد

فحصت أسر فيهن الأمهات لا يشربن الكحول وافراز أثدائهن للبن عادى، ولكن الآباء فيهن أربعة أقسام (١) متحرجين (أى لا يشربون أصلا)، و (٢) مقتصدين (أى يشربون بلا إسراف) ولكن فى أوقات معينة، و (٣) مقتصدين لا يتقيدون بوقت، و(٤) مدمنين.

فكانت النسبة المئوية فى مقادير لبن بناتهم هكذا :

عاديات الافراز اللبنى :

٥٦,٧ من بنات المتحرجين (١)

٣٤,٧ من بنات المقتصدين (٢)

٦,٨ « « المقتصدين (٣)

١,٨ « « المدمنين (٤)

أما تأثير ذلك فى الأطفال الرضع فإن الطفل إذا خف لبن أمه أو قل، فانه إما أن يلجأ به الى المرضعات اللاتى تكاد تخفى آفاتهن، وإما أن يغذى ذلك المسكين بألبان الحيوان أو بالألبان الصناعية الكميوية وهنا الطامة الكبرى؛ فقد دلت الاحصائيات التى وضعت حديثاً فى المقايسة بين من ترضعهم أمهاتهم وبين غيرهم من الأطفال على أن كثيراً من هؤلاء يموتون قبل الفطام، ومن يفلت منهم من يد الموت فانه يشب ضعيفا، كما أثبتت ذلك أيضا الأبحاث الطبية التى تجرى خلال التجنيد العسكرى.

ذلك اجمال ماتجنى الخمر على الذرارى والحياة التناسلية عامة، أما آثارها السيئة فى أبدان شاربيها وفى الحياة الاجتماعية، فانها أكثر من أن تحصى، وقد سبق سرد كثير منها.

الكحوليات والبغاء

من أشوه أمراض الحياة المدنية التى انشرتها القوانين الانقلابية فى القرن التاسع عشر، ثم اعتبرتها بعض الأمم الغربية من أظهر آيات الحضارة الراقية، ذلك المرض المرذول، وهو البغاء والعهارة .

انشرت المدنية الغربية تلك الآفة الاجتماعية، مستندة فى ذلك إلى ما ابتدعه شارعوها من أصول القوانين المحدثة، ولم يكد يسلم من عدواها إلا قليل من أمم أوربا كانجلترا . ولقد كان المرجو من أمم الشرق الاسلامية ألا تحذو حذو الغرب فى بدعه المعوجة ومستحدثاته المرذولة، وأن تجد من دينها، الذى جاء لتتميم مكارم الأخلاق، ما يزعها عن التشبه بالغربيين فى رذائلهم، ولكن إفتتان الشرق بلوامع المدنية المادية، وصنوف الفلسفة الالحادية التى انبعثت من الغرب منذ القرن التاسع عشر، هو نا على تلك الأمم كثيرا من الآفات الاجتماعية والأمراض النفسية والعلل الدينية . وجاء فى مقدمتها جمعاء آفة البغاء لما لها من التأثير الكبير فى مرضاة الميول الشهوية النفسية . ولهذا المرض من النتائج والآثار ما لا يستوعبه أمثال هذه العجالة، فلنجتزىء هنا بالكلام فى مبلغ علاقته بالكحوليات التى نحن بصددها.

إن من أهم أسباب انتشار البغاء فى الجموع المدنية إهمال الآباء أمر العناية بأولادهم، أو غل اليد عن تعهدهم بما يلزم لهم من المرافق والحاجات الحيوية . وقد أسلفنا أن البيوت الشاربة تنفق فى الكحوليات من دخل عائليها

شطراً كبيراً، فلا يكاد يفى ما يبقى من صبابة اجورهم بما لابد منه فى تربية ابنائهم وبناتهم . وهنا تجتذب أيدى الضرورة والحاجة فتيات تلك البيوت، لاسيما حسان السحنة منهن، إلى التماس أسباب الرزق من بعض الوجوه، فلا يجد أكثرهن من الشفعاء والوسطاء ما يضمن لهن حياة خفضة مطمئنة، والنفس بالطبع مفطورة على الرغبة فى العيش الناعم والنفور من حياة التعب والنصب، فمتى وجد الانسان من الأسباب الخفيفة ما يوفر عليه رغائبه تقاعد عن التطويح بنفسه فى مشاق الأعمال وصعابها.

والنساء من هذا الباب أشد إفراطاً من الرجال، فان فيما حبب اليهن من الحياة الزوجية، وفيما تصبو اليه نفوسهن من الأمومة ما يبغض اليهن كل ما من شأنه ابعادهن عن تلك الرغائب من المهن والحرف وسائر الاعمال المتعبة. كما أن فى ذينك السببين ما يجعل أدوات الزينة والتطرية وآلاتهما فى ضروريات حياتهن وأركان وجودهن الاجتماعى. لا فرق فى ذلك بين نساء المدائن ونساء القرى والبوادى.

ولا يخفى ما يتولد عن ذلك من زيادة حاجة المرأة إلى المال وورودها غالبا كل ما يتلوح لها من ينابيعه، وهنا تتقدم الأشربة الكحولية فتستوفى حظها من الغواية وتزيين السوء وترويج الفساد.

يستدرج الفتيان أولئك المعوزات بما بين أيديهم من صنوف الغواية والتزيين، ثم يستهينون على مستعصهن أولا بمخفف الشراب وبما تسخو به أيديهم من الهدايا ويسير المال، فلا يلبث أن يهوى بهن الكحول فى تلك

الأيدى الآثمة، التى لا هم لها سوى مرضاة الشهوات البهيمية ، ولو باستياق الشريفات العفيفات إلى معاهد البغاء وأوكار الضعة والشقاء .

هنالك يتداولن تداول الأمتعة ، ويفقدن ما جمل الله به الإنسان من الكرامة والعزة .

ذلك، ومن الآباء والأمهات من يعجلون شقاء فتياتهم فيبيعونهن من بيوت الفجور على النحو المعروف الآن « بالرقيق الابيض » ، فلا يجد الكحول إذاً كبير عناء فى مناجدة الفجرة من الرجال وانجاز ماتصبو نفوسهم اليه من المآرب والحاجات .

ولقد أثبتت الإحصاءات أن أكثر ضحايا البغاء والعهارة من الفتيات والنابتات فى البيوت الكحولية، فمن ذلك احصاء نيويورك لسنة ١٨٦٨م إذ كان لها من البغايا إذ ذاك ٢٠٠٠ بغى، وبسؤالهن عن شئون أهليهن الحيوية والاجتماعية حصلت الحكومة هنالك على النتيجة التى فى الجدول التالى :

من ٢٠٠٠ بغى

٢٩, ٨ ٪ = ٥٦٩ لآباء مدمنين

١٧,٣٥ ٪ = ٣٤٧ لأمهات مدمنات

٣١, ٨ ٪ = ٦٣٦ لآباء معتدلين فى الشرب

٢٨, ٧ ٪ = ٥٧٤ لأمهات معتدلات فى الشرب

وقد قررت السيدة تارنوفسكى فيما امتحنت من البغايا النابتات فى بيوت يشرب آباؤها أو أمهاتها أن عددهن لا يكاد ينقص عن ٦٩ ٪ من مجموع ما امتحنت من العاهرات عامة .

لا ينتهى تأثير الأشربة الروحية هنا عند حدود تيسير أمر البغاء ، وإحالة قسم كبير من الصنف الرقيق النفيس بضائع معروضة، تتداولها أيدى المستفتحين ، وتستبيحها الدراهم المعدودة، بل إن من آثاره السيئة فى حياة تلك الطائفة التعسة ما يزعج المتدبر ويذيب القلوب القاسية حسرة عليهن. تندمج الفتاة فى تلك الزمرة، فبعد إذ كانت تستدرج بالمغريات، ويلان شماسها بخفيف الأشربة الروحية، تنعكس القضية فيما بعد، فلا تشرب فى حضرة طلابها للذة تبغيها من الشراب، ولكن لتستدرجهم إلى الكؤوس المتلاحقة كى تحل بها عقدة جيوبهم، وتبسط بالعطاء مقبوض أيديهم، فتربح فى غمرات نشوتهم أضعاف ما تبلغ فى صحواتهم .

ومن أولئك الفتيات من يستخدمهن أرباب المواخير والمراقص ليستملن الأغرار وأهل الدعارة، ثم ليشربنهم ويشربن فى حضورهم مايرتد على مستخدميهن بالمال الوفير والربح الكثير ، ذلك حرصاً على مرضاة سادتهن ، وخشية أن يخرجن من تلك المواخير، لاسيما ماكان منها مشهورا يكثر اختلاف أهل الدعارة اليه ويقبل السفهاء بأموالهم عليه .

تختار تلك الأماكن وسام الفتيات لتتصيد بهن الرجال، حتى إذا مادخلوها أسقينهم من كؤوسها وأقداحها وزجاجاتها مايبتلع جل موسوعات جيوبهم، وأكثر ماتجمع من كسبهم ، ثم تعمد تلك الفتيات مرضاة لمستخدميهن الى مابين أيديهن من الصيد المقنوص، فلا يزلن يثقلنه بالتكاليف، ويجعلن فتح زجاجات الشمبانيا والوسكى وعتيق النبيذ من شرائط وصالهن ووسائل مرضاتهن، ثم لايزلن يكلن بالصغير والكبير والماخورى، ومن خلفهن يجمع

ما تجلب من الدراهم والدنانير حتى تحيط خزانته الحديدية بما كان متفرقا فى جيوب أولئك الفدام وضحايا المدم .

ولفتيات تلك المواخير فى فتنة الأغرار وإبتزاز أموالهم من الطرق ما يفضى دائما إلى الأحداث المنكرة والجرائم الكبيرة، كما أن اغراقهن فى الشرب، لما ذكرنا آنفاً من الأسباب، ينقلب مصدرا لشقائهن وعلة مطردة لتعس عيشهن ونكد حياتهن، فكم حوت السجون ومستشفيات المجاذيب من أولئك الفتيات ، ثم كم شقيت الحياة الاجتماعية بما يأتين فى المدائن من ضروب السيئات وصنوف المنكرات . تعرف هذا دوائر الشرطة ودوائر القضاء فى كل أرض، كما يعرف مبلغ تعس تلك الطائفة وشقاء عيشها واعتلال أبدانها وعقولها أطباء الشرطة والسجون والبيمارستانات .

مبلغ علاقة الكحوليات بالتجارة والصناعة والوصلات (طرق المواصلات)

لا تنفك الأمم تخترع وتبتدع ، باذلة ما لا يقدر من عنايتها بأمر هذه الشعب الثلاث، وذلك منذ فتح الله على الإنسان باستعمال البخار والكهرباء واستخدامهما فى الشئون الحيوية طوع إرادته وعقله اللذين بهما استخلفه الله فى الأرض .

يسرت وسائل النقل ، وكثرت صنوفها وأنواعها بين قريب البلدان وبعيدها مدنها وجاهلها، حتى أصبح كل قوم ، بل كل فرد من كل قوم يحس بما بينه وبين سائر الناس المبعثرين فى أدانى البلاد وأقاصيها من تنوع اللحم والصلات .

ولقد جاءت الحرب العامة الأخيرة، فأدرك بها، حتى الجاهلون والأحداث، أن ما بين القطبين من عامر الأرض وغامرها، وسائلها ويابسها، متشبك متلاحم تجرى فيه القطارات البخارية والسفائن والطائرات والأسلاك والتيارات الكهربائية انبثات العروق والأعصاب فى جسم الكائنات الحية. ماكان أجدرنا أن نقف بتلك الوسائل القيمة لدى حدودها النافعة، وأن نحتفظ بها فلا تسفه أحلامنا فى استعمالها، ولكن الانسان، الذى يحنى على ما بين جنبيه من عناصر كيانه وشرائط حياته وأداة حسه وإرادته وإدراكه أبى إلا أن يسير بها سيرته فى ذرات بدنه ودقيق أعصابه، فسلط عليها ما سلط على بدنه من الأشربة الكحولية، وأضر بها كثيرا من الأرواح البشرية، ونفائس الذخائر، وقيمات المنقولات التجارية.

اتخذت الوصلات وسيلة لبث الكحوليات فى الأرض، ففعلت فى كثير من الجموع الانسانية ما تفعل الأوبئة. وما أفضح ما فعلت وتفعل دول أوروبا فى ذلك، فلقد أبلغ ماليوها تلك الأشربة بين الأمم الشرقية ما بلغته سفائنهم وسككهم الحديدية، فلم يلبث الكحول أن أمكن دولهم من مآربهن الاستعمارية ولباناتهن الاستغلالية، حتى استخلفهن فى كثير مما لأولئك الأغرار الجاهلين من البلدان والممالك. ثم تفشى الكحول فى القائمين بتدبير آلات النقل التجارية، كما تفشى فى طبقات عمال المصانع (الفبريقات) صغراها وكبراها، حتى أصبحت الأخطار الملمة بأولئك العملة وبالمصالح العامة من الشئون التى لا يحمل السكوت عليها.

يسكر سائقو القطارات، وربابين السفن التجارية، وأشباههم من الشاغلين

لأمثال تلك الوظائف، التى من أهم شرائط السلامة فيها حضور الذهن وفرط اليقظة وشديد التحوط، فلا يكاد يسلم من العطب أومادونه من النتائج المؤلمة ما يكون بها من الأنفس البشرية والأموال القيمة .

يسكر العامل فى المصانع التى تحتاج إلى دقة النظر وفرط الحذر ونشاط البدن، فلا يلبث الكحول أن يضعف منه الأعصاب فيسلبه بذلك الدقة الضرورية والحيطة الكافية ويعرضه لخطر ماهنالك من الآلات الحديدية الثقيلة، ومن قدرت له السلامة من تلك الأخطار، فان الفتور والخدر يتغلب على عضلاته فيحرمها النشاط الذى هو شرط فى نجاح العمل والعامل معا .

لا يكاد القلم يستقصى ما ترمى به الكحوليات العمال ومدبرى تلك الآلات التجارية والبنزينية والكهربائية على اختلاف أنواعها من النوازل والأحداث المريعة، ولكن للاستئناس يجمل أن نضرب فيما يلى بعض الأمثال

أدركت شركات السكك الحديدية فى أمريكا خطر إباحة الكحوليات لعمالها منذ أمد بعيد، فحرمت عليهم قليلها وكثيرها، ماداموا موظفين لديها ولو كانوا خارج أعمالهم، أو كانوا بين جدران بيوتهم. وأما فى المانيا فقد حرمت إدارة السكك الحديدية ذلك على عمالها، ماداموا مباشرين لوظائفهم أو متهيئين لنوبتهم، مع فرض عقوبات قاسية على من يخالف ذلك منهم بلا رحمة ولا هوادة .

مافعلت أمريكا ذلك ولا المانيا بالطبع إلا بعد أن رأيا من الأخطار المريعة الناجمة عن استعمال عمال سككهما الحديدية للأشربة الروحية ما قبح معه السكوت والجمود، فان فى نوازل المصادمات وخروج القطران عن القضبان

وانفجارات المراجل وخطأ عمال (الاشارات) ما اضطرهما إلى اتخاذ تلك التدابير الصارمة ووضع الأنظمة الشديدة، وإن يكن فيها - كما يزعم رجال القانون - عدوان على ما يسمونه «حرية الفرد»، فلقد روى عن مدير لأحدى شركات السكك الحديدية الكبرى بأمريكا قوله فى تقرير له: إن «حرية الفرد» لايجوز أن يقال بها فى شىء من الوظائف التى تقتضى يقظة العامل وحضور عقله.

وكائن من حادث قضى بالعطب على المسافرين فى البحار، لا لعلة سوى حميا الكؤوس والأقداح تصرف ربابين السفائن عن تدبيرها والاحتفاظ بما استودعوا فيها من الأرواح والأموال. أضرب مثلا سفينة نياجر الفرنسية (١) فلقد كان بها ثلاثة ربابين، ومع ذلك لم يغنها ذلك فى بعض سفارها شيئا ليلة عقد الكحول عيون مسيريها فتركوها للرياح المتصادمة فى الأمواج المتلاطمة والركب يربو على تسعمائة نسمة، حتى استاقتها ريح عاتية إلى شط ضحل من شطوط آسيا الصغرى، فما لبثت أن ارتطمت فى رماله، بعد صدمة خلعت القلوب، وميلة أشرف فيها الركب على الغرق، ولولا عناية ربانية تداركت أولئك المساكين، وهم فى ظلمات الليل البهيم لاحول لهم ولا حيلة سوى ضراعات المتوكلين منهم يطرقون بها أبواب السماء وصيحات خفاف الأحلام من بينهم يملوءون بها واسع الفضاء، ولولا تلك العناية لذهب الجميع ضحايا الكؤوس التى تناولها أولئك الربابين.

---

(١) حدثت هذه النازلة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٢م وكان كاتب هذه السطور وأهل بيته وأولاده فى جملة ركابها.

ليس الخطر الناجم عن الخمر فى المصانع والمعامل بأقل مما يحدث بسببها فى السفائن والسكك الحديدية . تكثر أحداث الخطر فى الأيام والأوقات التى يشرب فيها العمال فى أيام الاثنين من كل اسبوع ، وكذلك بعد الافطار وفى الآصال (أى من العصر إلى المغرب) من كل يوم ، كما تكثر جداً فى معامل الجعة (البيرة) التى قضى عرفها ألا يمنع العامل فيها عن تناول مايشاء من المقادير بلا عوض ولا تقييد . وضع الأستاذ وايهرواح إحصاء لمدينة مونيخ فيما بين عامى ١٨٦١ — ١٩٠٤ أثبت به أن الوفيات بين عمال الجعة تبلغ ٦,٤ بنسبة المائة من سائر الأسباب المفضية إلى الموت مطلقاً ، ونعنى بذلك الوفيات الناتجة من تلك المصانع عن الاخطار والاصابات التى تنزل بعمالها بسبب إفراطهم فى شرب الجعة ، لما أسلفنا من أنه مباح بها .

وجاء فى إحصاء وضعه كوخلين فى بيان تأثير الكحوليات لما بين عامى ١٨٨٧ — ١٩٠١ أن متوسط الإصابات فى مصانع الجعة وحدها يبلغ ١٠٩ لكل ١٠٠٠ عامل ، بينما متوسط الأصابات فى سائر المصانع الأخرى مجتمعة ٤٣ إصابة لكل الف عامل ، فاستنتج من ذلك كوخلين مبلغ ما بين تناول الكحوليات وبين الأخطار والاصابات التى تلم بشاربيها . ولقد تزودنا شركات التأمين وشركات مصانع الكحوليات فى ذلك بكثير من الحقائق ذات البال .

قررت لوائح « الزيدرهوته » من باب التجربة التضييق على عمالها ، وحرمت عليهم استعمال تداول زجاجات الجعة بينهم خلال عملهم ، فهبطت لديها الاصابات خلال خمسة أعوام إلى ثلث ما كانت عليه قبل هذا الحجر والتضييق

وقد أدركت بعض شركات التأمين فى إنجلترا سر كثرة الاصابات بين العمال الشاربين، فقررت اعفاء المتحرجين عن الأشربة الكحولية عن مقدار من الأقساط الشهرية يتراوح بين ١٥,٥ بنسبة المائة . وبالجملة فإن سائر الشركات الصناعية قد أخذن منذ فقههن سر تكرر الاصابات بين العمال، أخذن يحرمن أو يضيقن على عمالهن فى استعمال الأشربة الروحية ، كما أن شركات التأمين على الحياة لا يزلن يختصصن المتحرجين ويفضلنهم على أصحاب الكحول بما يفرضن من الامتيازات، وليس ذلك بالطبع عبثا منهن وتضحية بكثير من منافعهن المادية دون فائدة يرتجينها ولا غاية يرمين اليها .

ولا مراء أن تأثير الكحوليات فى المصانع لا يقف عند حدود تعريض العمال لأخطار الآلات البخارية ، فلقد سبق لنا القول فيما ينجم عنها من توهين القوة العاملة ونقص ما تخرجه من الثمرات العملية ، ولا بأس أن نزيد هنا أن أدق مقياس للقوة البدنية هو الامتحان العسكرى، أى الامتحان الذى تفرضه الحكومات المدنية للتجنيد ، فيجمل أن نستأنس هنا ببعض ما ورد فى ذلك الباب من النتائج .

لقد كان التجنيد فى المانيا فرضيا قبل الحرب العامة بنسبة الأمم الأخرى، بيد أن ذلك لم يصد المفكرين عن تدبير الأسباب التى أثبتت عدم صلاحية نحو ٥٠٪ من المتطوعين بخدمة سنة فى الجندية بها . قارن الدكتور روزا فى الصلاحية للجندية بين الجزارين والخمارين وبين أبنائهم ، فوجد أنه بينما يصلح للخدمة العسكرية من الآباء ٧٦٪ إلى ٩٠٪ لا يصلح لها من أبنائهم سوى ٣٨٪ إلى ٤٣٪ ، وذلك لأن الضعف فى الآباء نتيجة تناولهم أنفسهم

الكحوليات، وأما فى الأبناء فله سببان: (١) ماورثوه عن آبائهم من الضعف (٢) ما نتج عن تناولهم أنفسهم لها من الآثار.

ولقد أثبتت الأبحاث الطبية العسكرية تصاعد نسبة غير الصالحين للجندية بين طبقات الخمارين تصاعدا مطرداً، كما أثبتت الاحصاءات الفروق الواسعة بين أصحاب الكحول (الذين هم غالبا من أهالى المدن) وبين القرويين فى الصحة البدنية وطول الأعمال والقوة العاملة والأمراض التناسلية. والمتدبر لما بين أنهر تلك الاحصاءات يرى أن جل الآفات والعلل المتفشية بين سكان المدائن متسببة عن الأشربة الكحولية، سببية قريبة أو بعيدة، وإذا كان لابد للشعوب من الدفاع عن أوطانها، ومنافسة غيرها فى ميادين الصناعة والتجارة وسائر شعب الحياة، كان عليها أن توفر بين حماتها وعمالها أسباب الصحة وشرائط السلامة، وتحفظها من الوهن والضعف، إذ لابد أن تدور الدوائر على أضألهن أجساماً، وأضعفهن أصلابا وأكثرهن آفات وآلاما، وانما أحزم الأمم وأعقلهن أسبقهن إلى التحرج والتأثم، وأشدهن تمسكا بقاعدة «سد الذرائع»، ومجافاة ينبوع الآثام والمحارم.

الخلاصة:

مما تقدم يتضح جليا مبلغ خطر الأشربة الكحولية، وأنه لم ينج من آثارها الضارة وأذاها البالغ شعبة من شعب الحياة، ولقد يحسن أن نضيف إلى ما سبق تفصيله كلمة لبعض الأمريقيين، نشرها على أثر معاهدة فرساى

يوم اشتدت الحاجة فى أوروبة الوسطى الى القوت، وشخصت بأبصارها إلى أمريقة تلتمس عونها وترجو غوثها، إذ يقول:

« تمد أوروبة إلينا يدها طالبة أن نقدم لها من القوت ما يقيم أصلابها ويحفظ حياتها، ولديها من الشعير وحده ما كان يكفيها أمر الاستجداء، لو أنها ضلت على مصانع الجعة (البيرة) المتفشية فى سائر أقطارها. ولو أنها فقهت قليلا لاتعظت بما فعلته الممالك المتحدة الأمريقية، فان ما أمدت به هذه أوروبة من الشعير لم يتجاوز ما صانه قانون تحريم المسكرات، وأوصد دونه أبواب مصانع الجعة.

« تطلب أوروبة منا الفحم، وتبتهل إلى عواطفنا بما يفعـــل الشتاء القاسى بضعفاء شعوبها وخفاف الحال من أفرادها، ثم تشكو فرط حاجتها إلى الفحم فى شعب الوصلات ومصانع المرافق والضروريات الحيوية، مع أنه كان يكفيها أمر تلك الضائقة أن تقبض أيديها - بما لديها من ملايين قناطير الفحم - عن مئات الآلاف من مصانع الخمر كبارها وصغارها. ولقد كان عليها أن تعتبر بما فعلت أمريقة عام ١٩١٨، فانها وزعت ما لم يستهلك فى مصانع الخمر المغلقة من الفحم مجانا على فقراء الشعب الأمريقى، فكان له جنة من برد ذلك الشتاء المهلك

« تشكو أوروبة الوسطى فرط حاجتها الى السكر، وترى ما يصيب الفقراء وخفاف الحال من شعوبها بسبب قلة هذه المادة وغلاء أسعار الموجود منها هنالك، مع أن لديها من الثمار السكرية، بل ومن ملايين قناطير السكر، ما كان يغنيها عن الاستجداء، لو أنها عقلت ففعلت ما تفعل الأمم الرشيدة.

« نقرأ بالأمس فى الجرائد الألمانية » أن ناظر الزراعة والصناعة فى حكومة بادن باون خطب جماعة من قادة الشعب، فقال - بعد كلام طويل ساقه لشرح أسباب الضائقة التى فيها ألمانيا - : إن قسم بادن باون فى حاجة شديدة إلى السكر برغم ماامتاز به عن غيره من أقسام الإمبراطورية الألمانية لما فيه من وافر الثمار السكرية كالتفاح والكمثرى والعنب والبرقوق وأشباهها. ذلك لأن مصانع الأشربة الروحية بها على استهلاكها المقادير الهائلة من تلك الثمار لاستخراج صنوف الأشربة المسكرة لا تزال تستهلك القناطير المقنطرة من السكر أيضا. ولقد دل الاحصاء على أنها استهلكت من السكر فى العام الفارط عشرين مليون قنطار. ذلك شأن بادن بادن وغناها فى عالم الثمار السكرية ما وصفنا، فما بالك بما تفعله المصانع الكبرى والصغرى المنبثة فى أجزاء الامبراطورية الالمانية التى تقل أو تندر فيها الثمار السكرية؟ لا جرم أنها تفنى بين جدرانها من السكر أضعاف أضعاف ما تفنيها المصانع هنا »

ذلك قول وزير خبير من أساطين أوروبة الوسطى يصف به منشأ علة من عللها الكبرى، ولكنه لم يتخط حد الوصف والاحصاء، فلعله خشى أن يصارح قومه الغافل بضرورة تعجيل القضاء على أفظع ينبوع من ينابيع شرورها، حيث تتخلق عوامل الشقاء وتتوفر أسباب البلاء

ولقد نجد من الناس من يسعون لترويج القول ببقاء حل الأشربة الكحولية، غير معتمدين على أسباب صحية أو آراء معقولة، ولكنهم يقولون إن الحكومات بقبولها قانون تحريم الأشربة الكحولية تفقد خزائنها كل عام

مالا يستهان به من الملايين الذهبية. وليس لهؤلاء من الأسباب التى يتذرعون بها إلى استباحة المسكرات سوى هذه الفكرة الواهيـــة أو المتهافتة من نفسها . يفكر ذلك النفر فى اغناء خزائن الحكومات بما تدره هذه الآفة الخبيثة غير مبالين بما تحدثه فى الجماعات الانسانية من صنوف الأذى، كأنما الحكومات ما أنشئت إلا للاتجار واستجمام الأموال بالحرام والحلال .

لا أرانى فى حاجة إلى مناقشة أولئك السخفاء من أهل الأهواء بعد إذ أعلنوا قصـــور عقولهم وجهلهم بالوظائف الاجتماعية التى تنشأ لأجلها الحكومات، والغاية التى ترمى اليها سياسة الأمم والشعوب، ولكن هنالك نقطة لا يدركها الا الواقفون من المنقبين والباحثين فى الوجوه التى تصرف فيها الحكومات أموالها. فان فيها من الحقائق ما يدحض تلك المزاعم، ويبين فحش خطأ أصحابها أو سوء طويتهم، وبما أنه لا يحضرنى الآن من المراجع ما اعتمد عليه فى بيان المقادير التى تنفقها الحكومات والجماعات والطوائف المختلفة فى معالجة نتائج الخمر ومدافعة شرورها (١) ،فاننى أكتفى هنا بذكر مجمل تلك الوجوه التى تذهب فيها الملايين الذهبية كل عام فيما يلى :

(١) مستشفيات المجاذيب والأمراض العصبية مطلقاً .

(٢) مدارس إصلاح الاحداث الذين كلهم أو جلهم من نتاج البيوتات السـاكرة .

---

(١) لقد كان لدى منها وأنا بالمانيا الشىء الكثير، ولكن ليس فى استطاعتى الآن وأنا فى أنقرة الحصول على شىء منها (المؤلف)

(٣) ملاجىء الأطفال النابتيين غالبا بسبب الغوايات الكحولية ، وأكثرهم لقطاء وأرباب أمراض متنوعة .

(٤) السجون التى تحشر اليها الحكومات أرباب الجرائم والجنايات المتنوعة من أصحاب الكحول ، سواء في ذلك من يكونون خلال أدوار التحقيق ومن حكمت المحاكم عليهم بأحكام مختلفة بسبب الخمر مباشرة أو بالواسطة .

فيما أسلفنا هنا من الوجوه ينفق مالا يكاد يحصى من الأموال التى تكاد تعدل ما يدخل خزائن الحكومات من الضرائب الخمرية على اختلاف أنواعها . فاذا أضفنا ذلك الى ما تستتبعه الأشربة الكحولية من المضار التى سبق بسطها فى الأبواب السالفة ، تبين أن الذين يروجون القول بدوام إباحة الأشربة الكحولية إنهم إلا ضالون أو مضلون، فليتب المسلمون إلى ربهم، وليفقهوا أسرار دينهم، ولا يكونوا كالذين قال فيهم الحق تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالانعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون، تلك آيات نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »

فهرس الكتاب

(تابع) فهرس الكتاب